إدريس أُوهلال

الانفجار العظيم

عصر النهايات

نهاية المدرسة، نهاية الجامعة، نهاية الشهادة...

نهاية المجتمع، نهاية الطبقة المتوسطة، نهاية الأسرة...

نهاية السوق، نهاية النقود، نهاية أنظمة التقاعد...

نهاية السياسة، نهاية القيادة، نهاية الديمقراطية...

... وبداية دورة تاريخية جديدة

الانفجار العظيم

عصر النهايات

الكتاب: الانفجار العظيم: عصر النهايات
المؤلف: إدريس أُوهلال drissohlale@gmail.com
الطبعة: الأولى 2021

الناشر: مجموعة الأكاديميات الدولية IAG

تصدير

« فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ» سبأ (14)

المحتويات

مقدمة

الفصل 1: فقه النهايات

- الانفجار العظيم
- عصر النهايات الكبرى
- نهاية دورة تاريخية
- هل هي مؤامرة عالمية؟
- هل هي نهاية الرأسمالية العالمية؟
- هل نسير إلى الهاوية؟
- المنزعجون من النهايات
- في فضائل الأزمات
- الضوابط المنهجية لخطاب النهايات

الفصل 2: نهايات في المجال التعليمي

- نهاية المدرسة
- نهاية البيداغوجيا
- نهاية الجامعة
- نهاية التخصص
- نهاية الشهادة

الفصل 3: نهايات في المجال الثقافي والإعلامي

- نهاية الوسائل التقليدية لنقل المحتوى
- نهاية الإعلام التقليدي
- نهاية المثقف
- نهاية التفكير

الفصل 4: نهايات في المجال الاجتماعي

- نهاية المجتمع
- نهاية الطبقة المتوسطة
- نهاية الصراع الطبقي

- نهاية الأسرة
- نهاية الخصوصية
- نهاية السعادة

الفصل 5: نهايات في المجال الاقتصادي

- نهاية السوق
- نهاية النقود
- نهاية الوظيفة العمومية
- نهاية أنظمة التقاعد
- نهاية الطاقة الأحفورية
- نهاية الاستهلاك المسؤول

الفصل 6: نهايات في المجال السياسي

- نهاية السياسة
- نهاية القيادة
- نهاية الديمقراطية
- نهاية الحريات الفردية
- نهاية الدولة الاجتماعية
- نهاية المصلحة العامة
- نهاية الجنسية
- نهاية الغرب

خاتمة: بداية دورة تاريخية جديدة

صدر للمؤلف

مقدمة

هذا كتاب في استشراف المستقبل وقراءة آفاقه المحتملة، إذ لم يعد بالإمكان التخطيط للمستقبل بدون استشرافه، في ظل حاضر مضطرب وعنيف ومستقبل غامض ومُرعب.

يستمد هذا الكتاب ضرورته من الأزمة العالمية الحالية والحاجة إلى فهم ما يجري من تحولات وتغييرات، ويستمد مشروعيته العلمية والفكرية والمنهجية من مرجعيات ومقاربات متعددة ومتكاملة، ومن تحليل الواقع الراهن بمختلف أبعاده للكشف عن حركيته وتحولاته، ومن فكر نسقي مُركّب عابر للتخصصات نُؤمن أنه وحده يستطيع أن يرى الواقع المُركّب على حقيقته ويفهم الأزمات المُركّبة في شموليتها وتعدد أبعادها.

في هذا الكتاب سنقوم بتجميع شتات قصة نهايات متعددة ومتنوعة (والنهايات الواردة فيه هي للتمثيل وليست للحصر)، وتجميع شتات قصة بدايات جديدة أيضاً.. تجميع القِطَع ضروري لتكتمل عندنا الصورة الكلية للنهاية والبداية، ونُدرك التغييرات والتحولات الجارية في الحاضر والقادمة في المستقبل.. **من يفهم "الموت" و "الحياة" وينجح في رصد "دواب الأرض" الدالة عليهما يُجَنِّب نفسه البقاء في العذاب المهين.**

في هذا الكتاب وقفة بل وقفات مع ظهور وتمدّد قِيَم ومؤسسات جديدة وثورية تُعلن عن نهاية القيم والمؤسسات التقليدية التي فتحنا أعيننا عليها وألفناها لحد الاعتقاد بأنها قيم ومؤسسات طبيعية وأبدية.

يبحث هذا الكتاب في خطاب النهايات لفهم وتفسير علاقة الجديد بالقديم، وطوفان التحولات التي يعيشها العالم، وما تتطلبه البدايات الجديدة من فهم للحياة باعتبارها ظاهرة مُتجدّدة، وللصراع باعتباره قانونا اجتماعيا كونيا.

ويجب ألا يفهم من نقد المؤسسات والقيم التقليدية أو الحديث عن نهايتها أنه دعوة للتخلي عنها، فنقد المدرسة مثلا والحديث عن نهايتها يجب ألا يفهم منه أن المطلوب من الأسر هو أن تنهض بمسؤولية تعليم أبنائها، فهذا من سابع المستحيلات في ظل الثورة العلمية والانفجار المعرفي وظروف عمل الوالدين. ومحدودية نتائج تجارب "التعليم المنزلي" دليل على خطورة المغامرة بمستقبل الأبناء بركوب خيارات غير مدروسة وغير مجربة وغير واقعية.

إن هدفنا من إطالة الوقوف عند النهايات (نهاية المدرسة، ونهاية الأسرة، ونهاية الشهادة، ونهاية السوق...) وتحليلها بعمق هو تعزيز الوعي بطبيعة التحولات الكبرى التي تعرفها اللحظة التاريخية التي نمر بها، مع الوعي أيضا بالبدايات والفرص التي تولد منها، لأن كل نهاية هي بداية

جديدة. ومع هذا الوعي المزدوج يفترض أن تتضح الرؤية والمسؤوليات والأدوار الجديدة.



الفصل الأول

فقه النهايات



الانفجار العظيم

من الخطأ التمسك بمؤسسات اخترعت في القرن التاسع عشر والاعتقاد في أنها مؤسسات طبيعية وُجدت منذ الأزل لتبقى للأبد والرهان على مستقبلنا ومستقبل أبنائنا في القرن الواحد والعشرين من خلالها.. من الخطأ التمسك بالمدرسة التقليدية النمطية الفاشلة والمعززة للفشل في زمن انفجرت فيه أشكال جديدة للمعرفة ووسائل فعّالة للتعليم والتعلم.. من الخطأ التمسك بتعليم جامعي نظامي حكومي وخاص يمتد لخمس سنوات وأكثر في زمن تستطيع فيه من مكانك امتلاك أفضل الشهادات والخبرات في سنة ونصف أو سنتين بمزيج من أفضل الكورسات المتميزة من جامعات عالمية مختلفة موضوعة رهن إشارتك في منصة رقمية بسعر لا يتجاوز 15٪ من تكلفة الاستثمار في تعليم جامعي خصوصي حضوري.. من الخطأ تضييع العمر في تعليم جامعي فاشل في حين يمكن تعلم معارف ومهارات بحجم أكبر وبشكل أفضل وفي وقت أقصر من منصة رقمية عالمية.. من الخطأ أن نستمر رهائن في سجن التعليم الحضوري النمطي الذي يفرض عليك المنهاج والبرنامج والمادة والمدرس والأسلوب والعبد والمعبود والمعبد، في حين أن الأشكال الجديدة للتعلم تتيح لك خيارات متعددة ومتنوعة دون قيد عتبة انتقاء أو شرط اختبار قبول، وتسمح لك باختيار المادة التي تناسب احتياجاتك باللغة التي تواكب مستقبلك مع المدرس الذي ينسجم مع نمطك وبالأسلوب الذي يحقق الفعّالية والكفاءة والمتعة .

أما بعد، بالأمس (26 يونيو 2020) وقّع الرئيس الامريكي دونالد ترامب أمرًا تنفيذياً يأمر فيه الحكومة الفدرالية بالتوظيف بناء على القدرات والمهارات بدلا عن الشهادات الأكاديمية.. إنه مقطع صغير ينضاف إلى مقاطع أخرى مرت علينا في المدة الأخيرة تباعا لكن في شكل علامات ضعيفة قلّ من ينتبه إليها ويحللها بشكل صحيح بربطها بالقصة ككل.. مقطع صغير من سيناريو الانفجار العظيم الذي تخطط له وتطبخه بنجاح الرأسمالية العالمية المتوحشة على نار سريعة وحامية أحيانا وهادئة أحايين .

إن ما يحدث هذه الأيام ليس تغييرا للعبة ولقواعدها وإنما تفجيرلها من الداخل.. ما يحدث اليوم مثلا في قطاع التعليم بالكثير من الدول من شد وجذب وصراع بين بعض المؤسسات التعليمية الخصوصية وأولياء التلاميذ ما هو إلا بداية القصة التي لا تحكي عن نهاية المدرسة العمومية المجانية فقط أو التهديد الذي يطال المدرسة الخصوصية المحلية نفسها، وإنما عن تحول الكثير من المؤسسات والمفاهيم التي اخترعت في القرن التاسع عشر كالوظيفة العمومية والتوظيف مدى الحياة وأنظمة التقاعد والمصلحة العامة، والقطاع التعليمي الخاص المحلي في هذه القصة مجرد أداة يحرث الأرض ويُعدها لمؤسسات التعليم الخاص العالمي القادمة، وأمامه سنوات أخرى قليلة إضافية ليستفيد قبل أن يطوف عليها طائف الرأسمالية العالمية المتوحشة بجناحيها الواقعي والافتراضي ويأتي على الأخضر واليابس .

إن هذا التحوّل، من القديم الذي يُصَوَّر على أنه فاشل وبطيء ومُكلف إلى الجديد الذي يُقَدَّم على أنه فعّال وسريع ورخيص، إن كُتب لنا إنجازه بنجاح فسنكون فيه مكرهين لا أبطالا، وعبيداً لا سادة، ومفعولا بهم لا فاعلين، لأن الذي يصنع النموذج الجديد ويُرَوِّج له هو نفسه الذي صنع النموذج القديم وروّج له! لكن القديم استنفد أدواره وحان أوان الجديد.

إن توجه الرأسمالية العالمية المفترسة نحو إعادة اختراع المدرسة والجامعة والوظائف والسوق وغيرها بما يخدم مصالحها لا يفرضه هاجس الافتراس المالي فقط، وإنما أيضاً عجز مؤسسات القرن التاسع عشر والعشرين عن مواكبة تطور الرأسمالية من رأسمالية صناعية إلى رأسمالية معرفية وعن أداء الوظائف الايديولوجية الجديدة التي تحتاج إليها رأسمالية القرن الواحد والعشرين. وستكون المؤسسات الجديدة في شكلها الجذاب والناعم والرقمي مؤسسات رأسمالية متوحشة مفترسة لتكافؤ الفرص ولحق الأجيال الجديدة في الانعتاق والحرية، لأنها ستعيد إنتاج عبودية القرن العشرين في أشكال جديدة تلائم احتياجات رأسمالية القرن الواحد والعشرين في الهيمنة الشمولية.. مع كل مؤسسة رأسمالية عالمية جديدة تشتغل بنموذج أعمال ذكي ومُبتكر وتكنولوجيات القطيعة (بلوكتشين، الذكاء الصناعي، أنترنت الأشياء، المعلوميات الكمية، البيانات الضخمة، التخزين السحابي...) وسند قوي من القرار السياسي الشبيه بقرار ترامب "التقدمي" (على شاكلة غوغل وميكروسوفت

وفيسبوك وأوبر ويوديمي وكورسيرا...) ستتبخر عشرات الآلاف من المشاريع الصغيرة والمتوسطة وسيتشرد عشرات الملايين من العاملين مع أسرهم وستكون الفاتورة الاجتماعية للتنمية الاقتصادية وفق النموذج الرأسمالي المُفترس في القرن الواحد والعشرين مرة أخرى باهظة وأكثر توحشا مما كانت عليه في القرن العشرين.. إحدى النتائج المتوقعة لهذه السياسة الرأسمالية المتوحشة هو ظهور طبقة اجتماعية جديدة لا تصلح لأي شيء، وقد بدأت رأسمالية القرن الواحد والعشرين تفكر بجد في حلول لتحمل نفقة هذا الابن غير الشرعي لسياستها المتوحشة من قبيل "**راتب عجز عالمي**" يحمي من التشرد ويكفي للأكل والنوم وإعادة إنتاج منظومة العبودية العالمية.

إنها تجربة نجاح آخر لذكاء الرأسمالية المفترسة ونَفَسها الطويل في المواجهة ومَضاء إرادتها العابرة للأجيال وحربها الطبقية الماكرة على المستضعفين، ويستطيع الطيبون مع هذا الانتصار الجديد، ومع كل انتصار للرأسمالية المتوحشة المفترسة، أن يتابعوا انشغالاتهم البيزنطية أو أن يستنتجوا بمجهود تحليلي بسيط حجم غبائهم في التخطيط وفشلهم في المواجهة، وأن يُدركوا أن **تلامذة داروين أكثر نباهة وذكاء وشغفا ومثابرة من مريدي كروبوتكين**.

عصر النهايات الكبرى

لعل من أخطر التعريفات التي يمكن أن نُعرّف بها مصطلح «عصر النهايات» هو بلوغ أثر الانفجار العظيم نهايته القصوى، وتوقف تمدد الكون، ثم انطلاقه من جديد في الإطباق علينا .

سيكون هذا النوع من التعريفات خطيرا لأن ما وصلنا إليه ليس طريقا مسدودا أو نهاية التاريخ بل هو فقط نهاية دورة تاريخية وبداية دورة تاريخية جديدة، وطريقة وصفنا لما وصلنا إليه ليس "أدبا للإرهاق" وإنما لغة وأسلوب لصناعة الوعي اللازم للمرحلة واليقظة المطلوبة للدخول في المستقبل بشروط الرائد أو المتحدي لا بشروط التابع المسحوب .

صحيح أن مصطلح «عصر النهايات» هو تعبير واضح عن تشاؤم العقل، لكنه تشائم تحكمه معطيات الواقع وآفاق المستقبل لما تفعله وتخطط له الرأسمالية العالمية المفترسة لا نزعة تشاؤمية وتمذهب للتفكير السلبي، ومع هذا التشاؤم أو بدونه فإن الإرادة متفائلة وستبقى دائما متفائلة مهما بلغ تشاؤم العقل عند النظر والتحليل .

هو «عصر النهايات» بسبب انهيار القيم والمؤسسات التي وضعنا فيها ثقتنا في الماضي مثل الأسرة والمدرسة والجامعة والتخصص والشهادة والوظيفة وأنظمة التقاعد والسوق والسياسة والديمقراطية والمصلحة العامة والقيادة .

مظاهر هذا الانهيار متعددة وعلى المستوى العالمي: واقع يتفكك ويفتقد بشكل متزايد ويوما بعد يوم إلى الصلابة والنظام واليقين والوضوح ويتحول بشكل متسارع نحو السيولة والفوضى واللايقين والغموض.

هل سيكون ما بعد الانهيار امتدادا لتداعيات الانهيار نفسه بحيث تطول الأزمة وتمتد بسبب غياب الحلول والبدائل، أم ستنجح حركية التغيير والتحول؟ لاشك أن حركية التغيير ستنجح وبكل تأكيد في تطوير أو إبداع واختراع نماذج جديدة فعّالة للقيم والمؤسسات التي وضعنا فيها ثقتنا في الماضي، لكن **هل ستكون هذه النماذج الجديدة في مصلحة الإنسان والمجتمع والإنسانية أم في مصلحة الرأسمالية العالمية المتوحشة المفترسة**؟ هذا هو السؤال.

نهاية دورة تاريخية

إن الانفجار العظيم لم يكن بالصورة التي يتخيلها الكثيرون: نقطة البداية المطلقة لكلٍّ من الزمان والمكان، أو النهاية المطلقة لكون سابق. الانفجار العظيم هو فقط اللحظة التي تغيّر فيها توجُّه الفضاء.. إن النهايات والبدايات في حياة المجتمعات ليست نهايات وبدايات مطلقة، وإنما اللحظة التي تتغيّر فيها قيم المجتمع ومؤسساته، لحظة انتقال تاريخي من نهاية قيم ومؤسسات لبداية قيم ومؤسسات جديدة.. فالتاريخ، كالكون والحياة، دورات، والدورة التاريخية هي التدفق الكامل لأحداث كائن تاريخي في دورة زمنية كاملة .وتمتد الدورة التاريخية الواحدة في المتوسط من 100 إلى 300 سنة، وتتخللها غالبا أحداث عنيفة بشكل دوري (كل 50 سنة وفق قانون بيتر تورشين) .ولبداية ونهاية الدورات التاريخية علامات تدل عليها أهمها الأزمات .

لكل كائن تاريخي دورة حياة تبدأ بالميلاد ثم التطور ثم القوة ثم الأزمة ثم الموت أو الميلاد من جديد وبشكل جديد.. **إنها دورة الحياة والموت؛ خروج الموت من الحياة، وخروج الحياة من الموت** .

رؤية الأشياء من أعالي التاريخ تمنحنا نظرة أوسع وأعمق وأبعد للأحداث ولحركتنا فيها، أما الرؤية الضيقة للأشياء من أسافل الأحداث فمحدودة الأفق، لذلك **يحتاج الفاعلون الذين يحملون مشاريع تاريخية إلى اكتشاف الدورات التاريخية لأنها تقدم لهم فهما أفضل**

لحركتهم في التاريخ. والفاعل الذي لا يعرف دورات التاريخ محكوم عليه أن يعيش أسيراً ومفعولاً به داخل الزمن السياسي لا حراً وفاعلاً عبر الزمن التاريخي .

ومن الدورات التاريخية التي ينبغي اكتشافها، ما نحن فيه من نهايات ومقبلون عليه من بدايات.. **إننا نعيش عصر النهايات الكبرى بكل تأكيد، لكنها نهاية دورة تاريخية فقط لا نهاية التاريخ، لأن التاريخ لا نهاية له** ..ومن الذكاء أن تصور انتصارك التاريخي على أنه نهاية التاريخ، وهزيمتك التاريخية على أنها نهاية دورة تاريخية فقط.

هل هي مؤامرة عالمية؟

كان الإنسان ولا يزال، يفسر الظواهر باللجوء إلى الخرافة أو الأيديولوجية عندما يعجز عن تفسيرها بشكل علمي، من بين هذه الخرافات والأيديولوجيات: نظرية المؤامرة.

لهذه النظرية مصدران: أوهام الذين فشلوا في بناء نموذج معرفي متماسك لفهم الواقع وتفسير أحداثه (**خرافة المؤامرة**)، ومكر الذين يستخدمون العنف الرمزي والمعرفة في حروب الوعي لترويض الاستعدادات على الخوف والخضوع والتبعية (**أيديولوجية المؤامرة**). والمصدران يتبادلان الاعتماد؛ لأن العنف الرمزي الذي تمارسه "نظرية المؤامرة" لا يعمل بفعالية إلا بتواطؤ مع استعدادات الذين يعتقدون في صحتها، كالفيروس لا يشتغل ذاتيا وإنما عن طريق حامله؛ فالفيروس "ملف تنفيذي "لا يعمل عند نزوله في الجسد حتى يقوم صاحب الجسد بتشغيله. أما النتيجة فهي في الحالتين واحدة: **الاستخدام الماكر للعنف الرمزي والمعرفة في الصراع لتدمير أهم وآخر قلاع المواجهة: الوعي والإرادة**. وهكذا يصبح المغلوب رهينة مرتين: للجهل باللعبة وللخوف من اللاعبين الكبار في نفس الوقت.

لسنا بحاجة إلى افتراض وجود "مؤامرات" لفهم اللعبة، لأن العلم وَفَّر لنا من أدوات فهم اللعبة ما يغنينا عن مثل هذه الافتراضات الخاطئة والخطيرة.

الحياة باختصار وفي كلمة واحدة لعبة، واللعبة صراع، وفي كل صراع يوجد لاعبون كبار ومُتَحَدّون وتابعون، ولكل لاعب مشاريعه واستراتيجياته في المواجهة، واللاعبون الكبار لا يكتفون في العادة بالهيمنة المادية، وإنما يزاوجون بينها وبين الهيمنة الرمزية باستخدام استراتيجيات العنف الرمزي وحروب المعرفة وحروب الوعي في الصراع لترويض استعدادات باقي الفاعلين في الحقل على المزيد من الخضوع والتبعية. هكذا يهيمن المهيمنون ويخضع الخاضعون .

إن وهم "المؤامرة" ليس سوى افتراض خاطئ (لأنه يعبر عن جهل بطبيعة اللعبة) وخطير (لأنه يعزز خضوع الخاضعين وهيمنة المهيمنين في الصراع)، هدفه ونتيجته ارتهان العقل والإرادة، ولا ينبغي لنا أن نكون على درجة عالية جداً من بلادة الفهم فنرفع استراتيجيات عادية ومعلومة في المواجهة إلى مرتبة مؤامرات. **إن أزمتنا لا تكمن في افتراض وجود مؤامرة وإنما في العجز عن فهم اللعبة بوعي عميق والدخول في الصراع بإرادة قوية.**

هل هي نهاية الرأسمالية العالمية؟

هل هي بداية نهاية الرأسمالية العالمية؟ هل هذا الانفجار العظيم وهذه النهايات الكبرى هي مظاهر لغرق الرأسمالية المُتجبِّرة في بحر جبروتها كما غرق فرعون ومن معه؟

كلما تحدث متحدث بحديث عن نهاية تَعَلَّق خيال المظلومين بنهاية الظالمين! إنها الرغبة عندما تتحول إلى معرفة .

نعم غَرَق الكثير من الفراعنة ومن معهم، لكن استمر النظام الفرعوني بعدهم.. المقارنة لا تجوز إلا بين نظام ونظام كما يقول عالم الاجتماع بيير بورديو، أما أن نقارن بين نظام وشخص، ونستند إلى نهاية شخص أو أشخاص لإقامة الدليل على نهاية نظام، فهذا يُعَبّر عن تبسيط منهجي وسذاجة فكرية .

من يُراهن على انهيار دولة أو مؤسسة أو قيمة أو دين لتنهار الرأسمالية العالمية فهو مُخطِئ وواهم. الرأسمالية العالمية ليست غبية لكي ترهن مصيرها بمصير دولة أو شركة أو حزب أو إيديولوجية أو دين .

الرأسمالية العالمية لها قدرة عجيبة على تلبس الأجساد الجماعية للأمم والدول والشركات والأحزاب والأديان دون أن ترهن مصيرها بمن تَتَلبسهم !

هل نسير إلى الهاوية؟

يستعرض هذا الكتاب النهايات التي تنتظرنا في الأفق، وهي في أغلبها نهايات غير سعيدة ومُرعِبة لأكثر الناس. صحيح أنها نهايات احتمالية، لكنها بنسبة عالية من الاحتمال، والاحتمالي هو ما يبدو أنه الأفق المستقبلي بناء على المعلومات الموثوقة في الحاضر.

لقد دخلنا عهد النهايات المُعَمّم في كل المجالات:

- **نهايات في المجال التعليمي**، كنهاية المدرسة ونهاية الجامعة.
- **نهايات في المجال الثقافي والإعلامي**، كنهاية المثقف ونهاية الإعلام التقليدي.
- **نهايات في المجال الاجتماعي**، كنهاية الأسرة ونهاية الطبقة المتوسطة.
- **نهايات في المجال الاقتصادي**، كنهاية السوق ونهاية النقود.
- **نهايات في المجال السياسي**، كنهاية الديمقراطية ونهاية الحريات الفردية.

كما دخلنا عصر نهاية الأساطير الكبرى:

- أسطورة المدرسة.
- أسطورة البيداغوجيا.
- أسطورة الشهادة.
- أسطورة المصلحة العامة.
- أسطورة السعادة...

لقد دخلنا عصراً صارت فيه معظم الحلول مشكلات، ومعظم الحقائق أوهاما، ومعظم المؤسسات التي اخترعتها الرأسمالية الصناعية في القرن التاسع عشر متقادمة وغير صالحة للقرن الواحد والعشرين، **فهل نسير إلى الهاوية، أم هي مجرد نهايات يُخرج الله منها بدايات جديدة؟**

للإجابة عن هذا السؤال يمكن أن نضع ثلاث فرضيات :

- **فرضية الاستمرارية والتجديد:** يرى هذا التوجه أن خطاب النهايات فيه الكثير من المبالغة، وأن كل ما في الأمر تغييرات وتحولات طبيعية ومألوفة ومتكررة عبر التاريخ في إطار التجديد.

- **فرضية الفوضى والأزمة والاندثار**: يرى هذا التوجه أننا نعيش في فوضى عالمية متزايدة، وأننا نمضي صوب الكارثة، وأننا فقدنا القدرة على التكيّف والمقاومة.

- **فرضية النهايات والبدايات: وهي فرضية ثالثة تعتقد بوجود نهايات حقيقية، وبأن ما يحدث ليس من جنس التغييرات والتحولات الطبيعية المألوفة في إطار التجديد، ولا حتى تغييراً للعبة ولقواعدها، وإنما تفجير لها من الداخل، لكن دون أن يعني ذلك أننا نتقدم نحو الكارثة، وإنما يعني أننا نتقدم نحو بدايات جديدة، وبألم المخاض.**

نعم ما يحدث هو تفجير للعبة من الداخل، وانفجار عظيم، ونهايات متعددة ومتزامنة تُفقد المُجرّب والخبير والمتخصص قبل الإنسان العادي القدرة على المرونة والتكيّف والمواجهة، لكن التاريخ يُعَلّمنا درسا مهما في الثقة: حيثما توجد نهايات توجد بدايات، وحيثما يوجد انفجار عظيم يولد كون جديد، وحيثما توجد مخاطر توجد فرص للإنقاذ والخلاص.. إن الواقع بطابعه المُركّب والمُعَقّد يتقدم من خلال علاقة التضاد والتكامل بين الأزواج المتناقضة .

ما يحدث ليس نهايات مطلقة تقود إلى الكارثة، وإنما نهايات تمثل البنية التحتية لعالم جديد قيد الظهوروالتشكل، مع الإقرار بأن

غير الاحتمالي يظل دائماً ممكناً، فالتاريخ يتحرك وفق منحى منحرف ويحطم دائما الاحتمالات القائمة .

إننا نمضي صوب النهايات لا صوب الهاوية، وكل ما نحتاج إليه هو التسلح بفقه النهايات، والتقدم نحو المستقبل بثقة ويقظة ووعي .

المُنزعجون من النهايات

إننا نمضي صوب نهايات لا صوب الهاوية، ورغم ذلك تجد الناس أكثر الناس منزعجة من الأزمة ومن أي تحليل لها أو خطاب حولها وخائفة ويتملكها الرعب .

برأي المنزعجين والخائفين والمرعوبين "الوضع الراهن يدعو للصمت والترقب فقط، ولا حاجة لنا بالتحليلات والرؤى. اليوم لا شيء واضح.. لا عدو واضح ولا صديق واضح.. نحن في فتنة، وبالتالي فحاجتنا الأولى والوحيدة هي الصمت ثم الصمت ثم الصمت. إنه زمن الصمت والهدوء والرجوع للذات ولملاذاتنا الآمنة، ولسنا خائفين من شيء، ولا راغبين في شيء ".

ويزداد الانزعاج والخوف والرعب عندما نستخدم مفهوم "النهايات" كأداة للفهم والتحليل.. إن مفهوم النهاية لوحده مُزعج، فماذا لو كانت نهايات متعددة ومتنوعة !

لفهم مصادر هذا الانزعاج والخوف وأسبابه، يجب الإقرار أولا بأن الواقع مُركّب ومُعقّد ومتعدد الأبعاد وغير يقيني، ويزخر بالإمكانات المتعددة، وبأننا لا ندري ما الذي سيتمخض عنه بالتدقيق مهما استشرفنا، ولا كيف يمكن لنا أن نختار مستقبلنا مهما امتلكنا من الخبرة والتجربة، ولا لأي جهة أفضل لنا أن ننتمي ومع من نتحالف؟ كل ما يبدو

في الواقع صلباً وراسخاً ويشتغل بشكل جيّد، يمكنه أن يندثر وينهار في أي لحظة .

هذا الواقع وهذه طبيعته، هو لوحده يدعو للانزعاج والخوف، أما إذا أضفنا إليه الواقع الحالي بنهاياته المرعبة والأزمة العالمية التي تخترقه، قد نستنتج بأن "الخوف شجاعة" على حد قول المثل .

الخوف من النهايات هو خوف من المستقبل، دافعه الأساس الحاضر العنيف والمستقبل المجهول، فلا يتبقى أمام الخائفين سوى الماضي أو بعضا منه يتمسكون به، باعتباره أقل صخباً وعنفاً من الحاضر والمستقبل. في مراحل الانتقال يبقى دائما شيء من الماضي يتمسك به الجبناء والأغبياء بشكل مطلق وبدون شروط .

لكل هذه الأسباب تجد أن أفضل طريقة، بالنسبة للكثيرين، لمواجهة الأزمات المُرعبة في الحاضر، والغموض واللايقين في المستقبل، هو أن تتجاهل وتعيش اللحظة، أو تصمت وتترقب، أو ترجع إلى مواقعك الآمنة .

هذا السلوك والموقف السلبي من النهايات والأزمات لا مبرر له، لأننا نستطيع أن نتجاهل الحاضر لكن لا نستطيع أن نتجاهل المستقبل، ولأن النهايات دليل على وجود بدايات جديدة، فالانفجار العظيم كان إعلانا عن ميلاد الكون من جديد، ولأن لكل تحدٍّ استجابة تناسبه .

عندما تكون اللعبة أكبر منا علينا أن ننخرط في المدى البعيد بالانسحاب من زمن المواجهة والانخراط في زمن الإعداد، وعندما يكون الغموض والعجز هما سمتي المرحلة تصبح حاجتنا الأولى الملحة هي القوة التحليلية والنقدية واستشراف المستقبل وتعبئة الإرادات، ولمرحلة وضوح الرؤية والقدرة على الفعل القوة الاقتراحية والقوة التدبيرية، أما الصمت والهدوء والرجوع للذات ولملاذاتنا الآمنة فسلوك الجبناء والأغبياء.

في فضائل الأزمات

الكثير من الحكمة والتوجيه والتحفيز التي نحتاج إلى تفعيلها في ظل الأزمة العالمية الحالية قيلت في السنوات والعقود والقرون الماضية ولن نضيف جديداً مهما قلنا، لكن خصوصية قولها في الظرفية الحالية هي أنها ستقال والناس في حالة تركيز قصوى واستعداد كلي للإنصات والتعلّم. نحن نعرف أن التعليم الفعال يحتاج إلى ذكاء اقتناص اللحظة المناسبة للتعلم .**وأنسب لحظة لتعلم مبدأ أرخميدس وقوانين الديناميكا الحرارية مثلا هي عندما تبدأ السفينة في الغرق** .

لقد كان الناس عبر التاريخ، مع كل أزمة تستبطن تهديدا حقيقيا بالموت، يتوقفون عن سباقاتهم المحمومة نحو الأشياء غير الضرورية ويعودون إلى الأساسيات، وهذه أول فضيلة للأزمات التي تُحرّك رغبتنا القوية في الحياة التي تعيد بدورها ترتيب الأولويات في حياتنا. إن الرغبة في الحياة التي لا تعلو عليها أي رغبة أخرى كفيلة بإرجاعنا إلى جادة الصواب وإلى الأساسيات والضروريات، بعبارة أخرى جامعة كفيلة بإرجاعنا إلى أفضل حصن ضد الموت، فعندما تحل الأزمة وتستيقظ الرغبة القوية في الحياة وتحتل مكان الصدارة بين كل الرغبات تسترجع الذات في لحظة صفاء أولوياتها وترجع إلى الأساسيات .

دعونا بعد هذه المقدمة نتساءل لماذا الأزمة؟ ونُبرّر "الحاجة إليها"، مادام وعينا الساذج يطلب تبريراً لكل شيء .

- الأزمة صعبة ومُكلفة لكنها مفيدة وضرورية، إنها تؤلم بشدة عند وقوعها، لكن بعد سنوات وعقود تحمل اسم الفرصة عندما يدرك الناس بعد حين فضائلها .

- إن التطور غير ممكن بدون أزمات .

- الأزمات رغم أنها مربكة إلا أنها تزيد من الفرص؛ إن التهديدات العظيمة جداً هي نفسها مصدر الفرص العظيمة جداً .

- لا يخاف من الأزمات إلا من يفتقد إلى الثقة بنفسه .

- الخوف من الأزمة يشل مبادرتك وحركتك؛ فالخائف لا يُبادر ولا يتحرك، ولا شيء أكثر خطرا على الذات من القلق والخوف والرعب .

- عندما لا نتغير بإرادتنا ولهدف ذاتي واضح، نتغير رغما عنا من خلال الأزمات ونحن ننتظر خطأ دوام الحال على ما هو عليه .

- الأزمات قدر الحياة وطبيعتها، ولا خيار لنا أمامها إلا أن نواجهها بحزم وذكاء، أو ستهجم علينا ونحن مدبرون عنها وخائفون منها .

إن أكثر الناس يرون في الأزمات التهديدات والمخاطر فقط، والحقيقة هي أن في **الأزمات فرصاً**؛ الأزمة فرصة ولحظة ضرورية لظهور الأشكال الجديدة للوجود والحياة والوعي. علم الفلك يعلمنا أننا نحتاج إلى انتظار ملايين السنين لنحظى بأزمة/فرصة تغيير في الكون تُنْتِج أشكالا جديدة للوجود. وعلوم الحياة تعلمنا أننا نحتاج إلى انتظار آلاف السنين

لنحظى بأزمة/فرصة تغيير في الطبيعة تُنْتِج أشكالا جديدة للحياة. ودروس التاريخ تعلمنا أننا نحتاج إلى انتظار مئات السنين لنحظى بأزمة/فرصة تغيير في حياة الأمم والشعوب تُنْتِج أشكالا جديدة للوعي. إن الأزمات هي العلامات الكبرى الدالة على وجود الحياة.. إنها الفرص التي لا يجود الزمن بها إلا مرة واحدة كل مليون سنة أو عشرة آلاف سنة أو مائة سنة .

في لحظات الأزمات لا يشم الخائفون إلا رائحة واحدة فقط هي رائحة الموت بأشكاله المختلفة التي تملأ الأماكن كلها، لكن للأسف يقضي الخوّافون وقتا أطول في التركيز على الموت لدرجة أنهم لا ينتبهون للحياة التي ستولد منه. **تفاءل فإن الأزمة فرصة لكي تُولَد من جديد.**

الضوابط المنهجية لخطاب النهايات

لفهم وتفسير ما يموج في العالم اليوم من تحولات وتغييرات يجب البدء بطرح أسئلة المنهج.

إلى أي حد يمكن للمُفكر أو الباحث التوسُّل بخطاب النهايات كمدخل منهجي لفهم وتفسير التحولات والتغييرات التي يعرفها العالم اليوم وغداً؟ أليس في خطاب النهايات نوع من التسرّع الفكري والبحثي؟

هل السؤال الذي يجب طرحه اليوم هو: هل المؤسسات التقليدية ستستمر أم لا؟ أم هو: هل الحاجة إلى المؤسسات التقليدية ما زالت قائمة أم لا؟

وهل يستطيع الفكر المتخصص الإمساك بالتحولات والتغييرات التي يعرفها العالم، أم نحتاج إلى الفكر المُركّب لرؤية الواقع المُركّب على حقيقته وفهم الأزمات المُركّبة في شموليتها وترابطها وتعدد أبعادها؟

ليس خطاب النهايات حالة من التَّنْجِيم، ولا سِباقًا في قراءة الغيب، وإنما هو خطاب له أسسه وصرامته ومصداقيته العلمية والفكرية. وهو نوعان :

- **خطاب النهايات العلمي** القائم على مناهج الدراسات المستقبلية والاستشرافية.

- **خطاب النهايات الفلسفي** القائم على مناهج التفكير الفلسفي وهي في مجملها مناهج تأملية.

خطاب النهايات الفلسفي، على أهميته، لا يهمنا هنا في سياق فهم وتحليل الأزمة العالمية الحالية وتأثيراتها على ظروف الناس ومعيشهم اليومي والمستقبل الذي ينتظرهم، ولا فائدة كبيرة تُرجى منه عندما يتعلق الأمر بالحاجة إلى فهم تأثيرات انفجار عظيم وأزمة كبرى على الحياة اليومية والمعيش اليومي والقرارات اليومية للناس، وعلى ثقتهم بمؤسسات وقيم فتحوا أعينهم عليها ووضعوا ثقتهم فيها وراهنوا عليها لبناء مستقبلهم ومستقبل أبنائهم.

خطاب النهايات الفلسفي يتحدث عن نهايات مجردة (نهاية العلم، نهاية الفلسفة، نهاية التاريخ، نهاية الانسان، نهاية الدولة...) من مواقع فكرية مجردة وبمنهج تأملي مجرد ولهدف تصفية حسابات فكرية أو خدمة مصالح فئوية، أما خطاب النهايات العلمي فيستشرف مستقبل مؤسسات وقيم تمثل جزءًا من واقع الناس ومعيشهم اليومي كالمدرسة والوظيفة والنقود والحريات الفردية، ويستهدف مساعدة الأفراد والمنظمات والحكومات على رؤية المستقبل بشكل أفضل، واتخاذ أفضل

القرارات لبنائه، ومعرفة أفضل الجهات والمؤسسات والقيم التي يجب أن ننتمي إليها ونتحالف معها في المرحلة المقبلة .

لكن رغم أهمية خطاب النهايات بصيغته العلمية، فإن استخدامه كأداة للفهم والتحليل لا يخلو من مخاطر، لذلك وجب أن نضع له ضوابط منهجية تجنباً لأي أخطاء في فهمه وتشوهات في استخدامه .

فيما يلي الضوابط المنهجية الأساسية لخطاب النهايات :

1. إن مفهوم النهاية لوحده مُزعج، فماذا لو كانت نهايات متعددة ومتنوعة، ولذلك قد تبدو النهايات التي نتحدث عنها أنها نهايات بالجملة بسبب كثرتها وتعدد مجالاتها، لكن يكفي أن نستحضر الطابع المُركّب للواقع والمنطق التلازمي لأبعاده والحاجة إلى فكر مُركّب لاكتشافه، حتى نفهم أن **التعدد والتنوع في النهايات ما هو إلا تعبير عن تعدد وتنوع وترابط أبعاد الواقع ومجالاته المختلفة** .

2. الحديث عن نهايات متعددة ومتنوعة لا يجب أن يُنظر إليه على أنه نهايات بالجملة وتضخم مفهومي ناتج عن الارتهان لإغراءات مفهوم النهايات، وإنما هو تعبير عن فكر مُركّب يكشف عن التداعيات المتعددة والمتنوعة للأزمة العالمية الحالية والتحولات الجذرية والشمولية والسريعة التي يعرفها العالم. **الفكر المُركّب وحده يستطيع أن يرى**

الواقع المُركّب على حقيقته ويفهم الأزمات في شموليتها وتعدد أبعادها، أما الفكر المتخصص فعاجز عن الإمساك بالظواهر المُركّبة وعن مجابهتها لوحده .

3. يمنع الطابع المُركّب للواقع والمنطق التلازمي لأبعاده أن نتحدث عن نهاية واحدة أو بضعة نهايات.. **عندما يقع انفجار عظيم فانتظر نهايات متعددة.** لكن النظرة التخصصية الاختزالية التي تقوم بتقطيع أوصال الواقع بين مختلف تخصصاتها تمنع من رؤية شمولية التحول والتغيير الذي يحدث وتعدد أبعاده ومجالاته. وخطورة هذا الأرخبيل من المنظورات المتخصصة لا تكمن في العجز عن فهم الأزمة وتعدد أبعادها وامتداداتها فقط، وإنما في العجز عن حلّها أيضاً، لأن **الأزمات المُركّبة تحتاج إلى حلول مُركّبة لا إلى حلول تنطلق من مقاربات تخصصية ضيقة** .

4. إن الاستخدام المفرط الذي قد يلاحظه القارئ لمصطلح النهايات في العناوين مقصود، لكن لأهداف تواصلية ومنهجية لا أكثر، ولا ينبغي أن يُحمل على معنى النهاية المطلقة للقديم والغياب المطلق لأي بداية جديدة، كما لا ينبغي أن يُفهم منه أننا نُؤسس "لأدب الإرهاق"، بل هي لغة وأسلوب لصناعة الوعي اللازم للمرحلة واليقظة المطلوبة

للدخول في المستقبل. العناوين تحتمل دائما كل شيء، خاصة عندما تستخدم لأهداف التشويق والإثارة الايجابية، لكن المضمون وحده يمنح العنوان نسبيته .

5. لا يجوز أن ننظر إلى النهايات المختلفة بشكل منفصل عن بعضها البعض، وبانفصال عن السياق العام المشترك الذي أنتجها.. إننا أمام تحول جذري وشمولي وسريع بأبعاد متعددة تربوية وثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية.. انفجار عظيم واحد بنهايات متعددة ومتداخلة ومترابطة ومتفاعلة .

6. **النهاية لا تقع في لحظة، وإنما هي نتيجة عملية وسيرورة ممتدة في الزمن**، يتداخل فيها الجديد مع القديم، والحياة مع الموت، والبداية مع النهاية، والتقدّم مع التقهقر، والثورة مع الأزمة، والسيّئ مع الجيّد، والنظام مع الفوضى، حتى أننا لا نعرف أين تنتهي النهاية وتبدأ البداية، وما ذلك إلا لأن أشكال العلاقة بين القديم والجديد متعددة، منها غزو الجديد للقديم، ونفي الجديد للقديم، وتعايش الجديد والقديم لفترة انتقالية أو بشكل مستمر. وهذا التلازم والتداخل بين هذه الأزواج المتناقضة هو خاصية بشرية، وبالتالي فهو يتجلّى في مجمل الظواهر البشرية .

7. ثورات **تكنولوجيات القطيعة** (أنترنت الأشياء التي ستمثل الشعور الجديد للبشرية، والبلوكتشين الذي سيمثل الذاكرة الجديدة للبشرية، والذكاء الاصطناعي الذي سيمثل التفكير الجديد للبشرية، والأمن السيبراني الذي سيمثل الحماية الجديدة للبشرية...) عززت نهاية الفوارق والحدود (مثلا نهاية الحدود بين التخصصات العلمية، نهاية الحدود بين الاتصال والإعلام، نهاية الفوارق بين الطبقات الاجتماعية)، وهذا سيعجّل بنهاية الكثير من المؤسسات والقيم التقليدية دفعة واحدة، مما سيحدث ارتباكا لدى الأفراد والأسر والمنظمات والحكومات في قدرتها على فهم ومواجهة "أبواب كل شيء" المفتوحة دفعة واحدة .

8. **النهايات مرتبطة بحاجات الناس المتجددة**، فكلما استجدت حاجات استجدت نهايات، وكلما تضخّمت الحاجات وتعددت وتعقدّت تضخّمت بالتبعية ظواهر النهايات، وهذا المبدأ يفسر لنا جانبا آخر من هذا التضخم الذي أصبحنا نلاحظه في النهايات والبدايات .

9. كلمة "بداية" في الغالب مُبهجة ومليئة بالاحتمالات المتعددة والفُرص الواعدة، لكن كلمة "نهاية" تثير الازعاج والخوف والرعب وغالبا ننظر إليها بعين متوجّسة. لذلك

تجد الناس أكثر الناس تحب أن تسمع كلمة "بداية" بدل كلمة "نهاية" عندما يتعلق الأمر بالاختيار بينهما، مع أنهما وجهان لعُملة واحدة، **والإعلان عن أي نهاية هو في حد ذاته إعلان عن بداية جديدة**، ورغم أن "النهاية" ليست بالضرورة خسارة، فبعض النهايات ضرورية وتحفيزية، بل تُعلن بصوت عالٍ انتهاء مرحلة قديمة وبداية مرحلة جديدة تحمل الأمل في أن تكون مرحلة جيّدة. **إن لفظة "نهاية" يجب أن تُحمل دائما على معنى "بداية جديدة"**.. قُم برصد النهاية وافهمها، واستشرف البدايات الممكنة والمحتملة الجديدة واستعد لها .

10. إن خطاب النهايات ضروري لفهم وتفسير ما يموج من تحولات وتغييرات في العالم اليوم، لكنه غير كاف لفهم وتفسير الجديد الذي سيحل محلَّ القديم المنتهي. **سنحتاج مع خطاب النهايات وبعده إلى خطاب آخر حول البدايات واحتمالاتها وتحدياتها، كما سنحتاج إلى تطوير مهارات إبداع المستقبل وابتكاره واختراعه.**



الفصل الثاني

نهايات في المجال التعليمي



نهاية المدرسة

عبر تاريخ الإنسان تعاقبت ثلاث موجات حضارية، حضارة الاقتصاد الزراعي وحضارة الاقتصاد الصناعي وحضارة اقتصاد المعرفة، وكان لكل موجة حضارية تأثيراتها الخاصة على المؤسسات الاجتماعية الأساسية: الأسرة والمدرسة والسوق .

على مستوى التعليم، أنتجت موجة الاقتصاد الزراعي **مدرسة المجتمع** التي كانت مدرسة عضوية نشأت في أحضان المجتمع ونمت وتطورت في كنفه وتحت رعايته وبدعم منه وكانت في نفس الوقت في خدمته، إلى أن جاءت الدولة القومية الحديثة التي كانت بحاجة إلى ترسيم حدودها وهويتها وتنميط الثقافات الجهوية في ثقافة قومية واحدة فأنشأت **مدرسة الدولة**. وتزامنت هذه الحاجة عند الدولة القومية الصاعدة مع حاجة الرأسمالية الصناعية الصاعدة أيضا إلى يد عاملة مؤهلة تأهيلا نمطيا يستجيب للتنميط الموجود في المصانع. وهكذا أنتجت الموجة المزدوجة للدولة القومية والاقتصاد الصناعي تنميطا مزدوجا يستجيب لحاجاتهما لا لحاجات الطفولة أو حاجات المجتمع. واليوم ومع الموجة الجديدة والتحول من الاقتصاد الصناعي إلى اقتصاد المعرفة لم يعد لمدرسة الدولة والمصنع مكان إذ ستختفي أو سيتم إعادة اختراعها في شكل جديد .

نعم لم يعد لها مكان وستختفي أو يُعاد اختراعها لأن المعرفة والمهارة تغيّرت كماً ونوعاً مع الثورات العلمية والتقنية والتواصلية، ولأن حجم المعرفة الانسانية ونوعها والأشكال المتعددة المتاحة بها والقنوات السهلة والسريعة للوصول إليها تغيرت وبشكل جذري وشمولي دون أن يتغيّر من فلسفة المدرسة ومناهجها وتنظيمها وشكلها ومضمونها شيء.

والمدرسة لم تبق على حالها فقط، بل تقاوم التغيير والتحول، وهي بمقاومتها هذه تحرم الأطفال من الدخول الفاعل في المستقبل، ومن الاستفادة الفعّالة والسريعة من مكتسبات الثورات العلمية والتقنية والتواصلية.

المدرسة بالنظر لشكلها الحالي وبسبب مقاومتها الغبية والجبانة للتغيير وبحكم التطور الهائل والنوعي والسريع في الوسائل والأشكال الجديدة والفعالة لنقل المعرفة والخبرة والذكاء، ستموت بكل تأكيد، والسؤال الوحيد المطروح هو فقط حول الكيفية التي ستموت بها، وحجم الضحايا التي سيخلف موتها من بين أولئك الذين عجزوا عن إدراك التحول الحاصل وركوب موجاته.

المدرسة في شكلها الحالي تعاني أصلا ومنذ اختراعها في القرن التاسع عشر من العديد من الأعطاب والمشاكل البنيوية، والآن مع الأزمة العالمية الحالية والتحولات الكبرى المصاحبة لها زاد طينها بلة وأصبحت

تواجه مشاكل جديدة ومخاطر غير مسبوقة تلزمها بتغيير العديد من مفاهيمها ومبادئها وقيمها ونماذجها وممارساتها التقليدية.

قبل سنوات كتبنا وكررنا أكثر من مرة وبأكثر من صيغة أن "**المدرسة في شكلها الحالي هي أسوأ اختراع في تاريخ البشرية**". لم يدرك الكثيرون معنى ذلك، بل عارض البعض ذلك.. لم يدرك الكثيرون أن المدرسة في شكلها الحالي لا تخدم مستقبل أبنائنا وإنما تخدم فقط مصالح أولئك الذين اخترعوها، وأنهم لن يترددوا في إعادة اختراعها بشكل جديد يضمن استدامة مصالحهم عندما تستنفد وظيفتها الحالية، وأنه **من الغباء أن نفكر في مستقبل أبنائنا في القرن 21 بحلول من القرن 19**.

أحيانا يحتاج الوعي ليدرك حقيقة ما إلى اللحظة المناسبة للتعلم، وأنسب لحظة لشرح مبدأ أرخميدس وقوانين الديناميكا الحرارية هي عندما تبدأ السفينة في الغرق. صحيح أنه بإمكاننا دائما أن نتعلم، وأوان التعلم لا يفوت أبداً، لكن **التعلم أحيانا يكون سابقا لأوانه. فإذا أدركت أن وقت التعلم لم يحن بعد، فلا تضيع وقتك ووقت الآخرين في دروس سابقة لأوانها. كل شيء بأجل.. خاصة التعلم**.

لكن أعتقد أن من التعلم الذي حان أوانه الاقتناع بأن التعليم النظامي بضاعة فاسدة، وأن النوعية الوحيدة الجيدة اليوم هو التعلّم المهرَّب في مدارس الحياة المتعددة والمصاحبة الفعّالة والتعلّم الذاتي.

المدرسة النظامية بشكلها الحالي بضاعة فاسدة، سواء كانت حكومية أو خاصة، لأنها المكان الذي يتم فيه تجميع الأطفال يومياً، ويكون الحضور إجبارياً، ليتم إخضاعهم لمناهج مُوَحّدة، وبرامج مُوَحّدة، وكتاب مدرسي مُوَحّد، ونموذج صف مدرسي مُوَحَّد، وتنظيم فضاء مُوَحّد، وإيقاعات زمنية مُوَحّدة، ونظام داخلي مُوَحّد، وميثاق قسم مُوَحّد، ونظام تقييم مُوَحّد، واختبارات مُوَحّدة. وفي هذا المكان نُجْبِر الأطفال على تعلم كيفية التعامل مع قضايا مألوفة ومجردة ومجزأة وأحادية البعد وبسيطة لمواجهة قضايا غير مألوفة ومرتبطة بسياق وشمولية ومتعددة الأبعاد ومركبة.. وهكذا تسرق المدرسة من عمرهم ثلثه لتعلمهم كيف يتعاملون مع قضايا لن يصادفوها في الحياة إلا نادراً. إنها فعلا أسوأ اختراع في تاريخ البشرية، اختُرعت لترويض الجسد على العبودية، وسفراء النوايا الحسنة يحاولون تطويرها لتُعد للحياة والحرية.. متفائلون .

ليت شعري كيف أقنع ذكاء الدولة الماكر الجميع أن الأطفال شعوب جاهلة ومتوحشة تحتاج إلى غزو جيش من المعلمين الراشدين المُرشدين الذين يحملون رسالة تعليم الأطفال الحضارة.. كيف تلاعب هذا الذكاء الماكر بالعقول والإرادات وأقنعها برسالة السادة الفاهمين لقوانين العالم وطريقة اشتغاله في تعليم القادمين الجدد حقيقة العالم وقوانين اشتغاله. لكن الحقيقة هي أن الراشدين لا هم يفهمون بشكل جيد القوانين الجديدة للعالم، و لا هم مدركون للحاجات المستجدة

لأطفالهم. **كيف يمكن لمعلم لا تجربة له في الحياة إلا التعليم ثم التعليم ثم التعليم أن يُعَلِّم شيئا مفيدا للحياة غير إعادة إنتاج منظومة التعليم!؟** إن الحقيقة المرة التي يرفض المعلمون والراشدون اليوم مواجهتها هي أن المعلمين والراشدين هم من يحتاج إلى تعلم القوانين الجديدة للعالم والطرق الجديدة لاشتغاله. وهذا الكلام لا ينبغي أن يفهم منه أن الأطفال لم يعودوا بحاجة إلى الذهاب إلى المدرسة للتعلم، وإنما معناه أن المدرسة بحاجة إلى أن يعاد اختراع مناهجها وبرامجها وطرق تنظيمها لتنجح في فهم ما يحدث من تغييرات كبيرة ونوعية في العالم من حولها، وأن يُعاد اختراعها تحت اليقظة التامة والعامة للأسر الحازمة والمجتمع الحي حتى تكون حقا وحقيقة في خدمة الطفولة والمجتمع لا في خدمة الرأسمالية المعرفية الصاعدة وحاجاتها المستجدة. فهل ينجح ذلك؟ أم سيعيد التاريخ نفسه فيُعيد الماكرون استخدام نفس الاستراتيجيات السابقة الذكية التي ثَبَتَت فعاليتها، ويُعيد الطيبون استخدام نفس الاستراتيجيات السابقة الغبية التي ثَبَتَ فشلها!؟

نهاية البيداغوجيا

المفهوم أولا.. البيداغوجيا هي فن وعلم هندسة التربية والتعليم، أو هي مجموع الطرق والممارسات الضرورية لتوصيل المعارف والمهارات والقيم. هذه هي البيداغوجيا، فما قيمتها؟

إذا كانت المدرسة هي أسوأ اختراع في تاريخ البشرية، فإن البيداغوجيا هي أكبر كذبة في تاريخ التربية والتعليم، وسباق البيداغوجيات ما هو إلا سباق أغبياء يتنافسون حول أفضل الطرق والتقنيات لتحنيط المعرفة الحيّة المكتسبة من التجربة الحيّة أو المصاحبة الفعّالة أو التعلم الذاتي، وعندما ندخل في سباق للأغبياء فإننا نبقى أغبياء حتى عندما نفوز بالسباق.. هذه هي مشكلة البيداغوجيا الأساسية أما باقي مشاكلها فمسائل ثانوية .

هي بيداغوجيات لا بيداغوجية واحدة؛ مزيج مريج من البيداغوجيات المتصارعة على المشروعية والريادة؛ بعضها يؤدي وظائف إيديولوجية لحساب الدولة، وبعضها يعكس طموحات وانتظارات الأسر، والبعض الآخر يحاول أن يعبر عن حاجات الأطفال والتلاميذ. في القائمة نقرأ مثلا: بيداغوجيا المحتوى، وبيداغوجيا الأهداف، وبيداغوجيا الكفايات، والتعلم النشط، والتربية الإيجابية، والتربية الأصيلة، والتعليم المنزلي ...

هذا حظ التعريف الأكاديمي للبيداغوجيات ولرهاناتها النظرية والتطبيقية، لكن مفهوم البيداغوجيا ونطاق استخدامها الفعلي أوسع من ذلك بكثير، **فأخطر البيداغوجيات هي التي لا تصرح بهويتها وتشتغل بشكل خفي وواقعي بعيدا عن مهنة التحنيط بالكفايات**.

توجد أربع بيداغوجيات غير أكاديمية على الأقل :

- **بيداغوجيا الدولة** التي تختفي وراء البيداغوجيات الأكاديمية لمضاعفة مفعول العبودية مادام الإخفاء هو أحد مبادئ الفعالية، وتستخدم أيضا تكتيك الإصلاح والتجديد البيداغوجي المستمر لأن الحاجة إلى الإخفاء المستمر يفرض التجديد المستمر.. **ذكاء ماكر**.

- **البيداغوجيا الشعبوية** المنشغلة بالبحث عن طرق وممارسات تحقيق تربية موحدة في إطار مبدأ تكافؤ الفرص والهوية الوطنية أو القومية.. **مثالية حالمة**.

- **بيداغوجيا الأسر** التي عرفت نموا وتوسعا مطرداً بتنامي وعي الأسر ومطالباتها بتربية اجتماعية أو إيديولوجية ملائمة لهويتها وقيمها وخصوصياتها وتطلعاتها.. وبلغ هذا الوعي مداه مع التعليم المنزلي الذي يجهل أو يتجاهل أن الطفل لا يحتاج إلى التعلم من الراشد فقط وإنما إلى التعلم مع أمثاله من الأطفال ومنهم أيضاً.. **وعي شقي**.

- **بيداغوجيا الرأسمالية الوطنية** المستثمرة في التعليم الخصوصي والمنشغلة بتعظيم أرباحها من خلال الانخراط في نماذج

بيداغوجية دولية (الباكالوريا الدولية مثلا) يتم استثمارها لأهداف تسويقية، أو اعتماد بيداغوجيا ترويض الأسود المُروّضة القائمة على لعبة انتقاء أفضل التلاميذ وأفضل الأساتذة.. تبحث هذه البيداغوجيا في بداية كل سنة عن أسود مُرَوّضة وتستقطبها، وفي نهاية السنة تُعلن أنها رَوَّضت كل الأسود المُرَوَّضة بنسبة 100%، وبذلك تخلق فرصتها لكي تتألّق.. **دهاء سوقي**.

الحصيلة: انتهت البيداغوجيات بمفهومها الأكاديمي المحنط الذي يقتل المعرفة التجريبية الحية بتحويلها إلى معرفة ميّتة ومُميتة باستخدام تقنيات التحنيط بالمحتوى أو التحنيط بالأهداف أو التحنيط بالكفايات أو التحنيط بتقنيات التعلم النشط، وقريبا ستنتهي أيضا البيداغوجيات بمفهومها الواقعي التي تناضل من أجل مصالح سياسية (بيداغوجية الدولة) أو شعارات شعبوية (بيداغوجية التربية الموحدة في إطار مبدأ تكافؤ الفرص والهوية الوطنية) أو مطالبات اجتماعية وإيديولوجية (بيداغوجية الأسر) أو مصالح الرأسمالية الوطنية (بيداغوجيات المدارس الخصوصية).

كل البيداغوجيات، سواء الأكاديمية أو الواقعية، تفشل :

- البيداغوجيات الأكاديمية تفشل لأنها مجرد تنظير مثالي مقطوع عن الواقع أو نمذجة تعمل على تحويل الواقع الحي إلى مفاهيم ونماذج وإجراءات جامدة.

- بيداغوجيا الدولة تفشل لأن حوافزها سياسية بالأساس، ولأن المعلمين الذين يسهرون على تنزيلها مجرد طبقة كادحة تشتغل بالحد الأدنى من المؤهلات مادامت المنظومة الرسمية لا تحتاج إلى تأهيل عال جداً، ولأنها تُعيد تكرار نفس المعلومات والإجراءات بشكل أبدي ومُمِل .

- البيداغوجيا الشعبوية تفشل لأنها تكتفي بدغدغة المشاعر الإنسانية والوطنية والقومية للجماهير دون تناول علمي وعملي لإشكاليات التعليم والتعلم الحقيقية .

- بيداغوجيا الأسر تفشل لأن حوافزها منغلقة على ما هو اجتماعي وإيديولوجي، ولأن أولوياتها متمركزة حول التميز الاجتماعي أو التربية الأخلاقية بدل شروط الدخول في المستقبل، وحتى عندما تنشغل بالمستقبل تتصرف بشكل أناني وتنشغل بمستقبل أبنائها فقط .

- بيداغوجيا الرأسمالية الوطنية تفشل لأن حوافزها مالية فقط ولا تستثمر في البيداغوجيات إلا بحوافز ولأهداف تسويقية .

إن النموذج البيداغوجي الوحيد الذي سينجح هو نموذج الرأسمالية العالمية، لا لأنه الأفضل فقط ولكن لأنه الأكثر ذكاءً ومكراً أيضاً. صحيح أن الرأسمالية العالمية متوحشة ومفترسة، لكنها هادئة وصبورة ومراقبة بحذر إلى أن تحين الفرصة فتنقض لكسب كل شيء، وهي تنجح لأن نماذجها في التعليم والتعلم ذكية وحوافزها لشركائها قوية واستراتيجياتها في التحكم شمولية.. كان الله لنا.

ستفنى كل البيداغوجيات الأكاديمية والواقعية ولن يبقى في المستقبل سوى بيداغوجية الرأسمالية العالمية المتوحشة المفترسة التي تقوم بهندسة التعلمات وتوصيل المعارف والمهارات والقيم بطرق وتقنيات سريعة وفعّالة ورخيصة تتمحور حول المنصات العالمية للتعليم والتعلم عن بعد .

من سيتمسك غدا ببيداغوجيات مَرِحة ومتفائلة تُبهر ولا تُؤثر، وبالمنتوج التعليمي الوطني الشعبي الاشتراكي الديمقراطي القومي الاسلامي الخُذ لك نَفَس، وبالهوية والأصالة والقيم التي تربطك بماضيك وتقطعك عن مستقبلك، وبتعليم نظامي حكومي أو خصوصي يستهلك من العمر والمال أغلبه، عندما ستعرض الرأسمالية العالمية المسلحة بتكنولوجيات القطيعة من كل جهة وشبكات التمويل الضخم من المنبع وشبكات التسويق الفعّال في المصب على منصاتها التعليمية السحرية فرصة امتلاك أفضل المعارف والمهارات والكفايات والخبرات والشهادات والعلاقات على المستوى الكوني بأرخص الأسعار وفي وقت قصير ومن مكانك؟

نهاية الجامعة

الجامعات اليوم في وضعية لا تحسد عليها أيضاً بالنظر للتحديات الجديدة التي تواجهها والتي تضع لأول مرة قدرتها على الاستمرار في أداء رسالتها موضع شك وتساؤل بسبب تجاوز بل احتواء طموحات العولمة الاقتصادية والتكنولوجية ذات النزعة السوقية طموحات الجامعات ذات النزعة العلمية والفكرية والإنسانية .

ماذا تبقى من رسالة الجامعات؟

- **التدريس؟** فاشل في أغلبه، وأفضل الكورسات والمعارف والخبرات والشهادات أصبحت تقدم من منصات تعليمية عالمية !

- **البحث العلمي؟** غير مجدٍ، وأفضل الأفكار والابتكارات أصبحت تنتج في مختبرات الشركات الرأسمالية العالمية !

- **خدمة المجتمع؟** مبادرات محتشمة، وأفضل مبادرات خدمة المجتمع أصبحت تقدمها الشركات الربحية في إطار مسؤوليتها الاجتماعية !

- **الشهادة؟** وهي الورقة الرابحة الوحيدة المتبقية للجامعات والتي يمكن أن تنافس بها المنصات التعليمية العالمية وقع الرئيس الامريكي ترامب على شهادة وفاتها في يونيو 2020 في أمره التنفيذي للحكومة

الفدرالية بالتوظيف بناء على القدرات والمهارات والجدارات بدلا عن الشهادات.

إن أفضل أساليب التعليم والتدريس، وأعمق البحوث العلمية والأفكار الخلاقة المبدعة، وأحسن مبادرات خدمة المجتمع أصبحت تأتي من خارج الجامعات! هذه هي المفارقات العجيبة التي تعيشها الجامعات اليوم والتي تهدد مستقبلها.

عندما بدأت الجامعات تشعر بالتهديد الوجودي لجأت إلى حل الانفتاح على محيطها الاقتصادي.. ضَعُف الطالب والمطلوب: جامعات في وضعية تهديد وجودي تنفتح على محيط اقتصادي في وضعية تهديد وجودي أيضا! ما قيمة جامعات تعد لمهن ستختفي في المستقبل؟ قريبا ستقضي مثلا الطباعة ثلاثية الأبعاد على مهنة أخصائي تقويم الأسنان! **إن الانفتاح المطلوب لتجنب هذا المصير هو الانفتاح على المستقبل وعلى ما تفعله وتخطط له الرأسمالية العالمية لا على محيط يعيش نفس التهديد.**

إن جهود الجامعات عندنا، خاصة الحكومية، مكبلة بضعف هامش التحرك ومرهقة بالإصلاحات الحكومية المتتالية التي تفتقد إلى الروح وتريد فقط تحويل الجامعة إلى مجرد مؤسسة معرفية في خدمة التنمية الاقتصادية في أحسن الحالات.

بعض الجامعات حاولت أن تكون أذكى فدخلت في عملية البحث عن هوية عصرية ورسالة جديدة من خلال إعادة تعريف القديم: التميز العلمي، البحوث العلمية المتقدمة، البحوث التنموية، تحسين التصنيف الدولي للجامعات، تحسين التمركز الدولي لمراكز البحوث، أقطاب الكفاءات... محاولات يائسة لإثبات مواكبة العصر والإنتماء إليه، لأنه **من الغباء أن تقبل بالدخول في لعبة أكبر منك وشروط المنافسة فيها غير عادلة وغير متوازنة**، وعندما ترفض اللعبة وتدخل في جزئياتها فأنت أيضا تلعب اللعبة !

ليس التحدي الحقيقي الذي يهدد قدرة الجامعات على الاستمرار في أداء رسالتها هو تحسين تمركزها في ذيل تصنيف دولي مثلا، وإنما هو تواجدها في مجتمع المعرفة واقتصاد المعرفة وتكنولوجيات القطيعة وسوق عالمية أصبحت فيها المعرفة تتحرك بحوافز سياسية واقتصادية لا بالحوافز الثقافية أو الأخلاقية، وأصبحت فيها **حروب القرن الواحد والعشرين هي حروب اكتساب المعرفة والتحكم في المعرفة**. وفي هذه السوق العالمية ذات التنافسية الشرسة والقواعد الجديدة للعب تفتقد الجامعات في أغلبها للأدوات الفعالة للمواجهة والدخول في التنافس .

عندما نقول أن الجامعة اليوم أصبحت توجد في مجتمع المعرفة واقتصاد المعرفة وحروب المعرفة فمعنى هذا أن المعارف المعترف بها والتي تفتح آفاق المستقبل هي المعارف المفيدة فقط؛ **اليوم وغدا سيكون الحقيقي هو المفيد لا الصحيح!** وهذا الوضع ليس جديداً ولا هو وليد

اليوم، فالجامعات كانت دائما توجد في خطوط تماس المصالح الاقتصادية والصناعية ولم تكن أبدا طيلة تاريخها تعيش متعالية عن واقعها في سماء الأفكار والنظريات الخالصة فقط، لكن وضع الجامعات اليوم وغدا مختلف كليا لأن السياق العالمي في العقود الأخيرة دفع في اتجاه التركيز على المعرفة العملية المفيدة فقط والتي تستجيب لحاجات الرأسمالية العالمية في المزيد من التربح والتحكم، والجامعات في هذه المواجهة تلعب خارج أراضيها وتفتقد إلى أدوات المنافسة الفعّالة مع الشركات الرأسمالية العالمية ومراكز بحوثها (الشركات الرأسمالية العالمية تنفق على البحث العلمي أكثر مما تنفق الكثير من الدول) وجامعاتها الخاصة ومنصاتها التعليمية.

ولعصر المعرفة (مجتمع المعرفة واقتصاد المعرفة وحروب المعرفة) الذي يمثل بيئة الجامعات اليوم وغدا وجه آخر في الاعتبار يمثل أيضا تحدياً وجوديا للجامعات هو الطلب الجماهيري المتزايد على المعرفة وعلى التأهيل العالي خاصة من طرف الشباب القادم من "الطبقات المتوسطة"، وفي هذا التحدي تفشل الجامعات أيضاً.

شباب الألفية الطموح الذي يحلم بالحصول على فرص عمل متميزة عبر بوابة تعليم جامعي متميز، يحصل في النهاية على تكوين أكاديمي نظري مقطوع ومنقطع عن الواقع وعن حاجات السوق ويجد نفسه في النهاية في الغالب الأعم مجرد رقم جديد ينضاف إلى جيش العاطلين المعطلين من حملة الشواهد العليا.

إن الاستجابة الفعّالة لهذا الطلب المستجد في عصر عولمة المعرفة وعولمة سوق الكفاءات والمهن يحتاج إلى نوعية خاصة من الأساتذة الجامعيين، وهم فئة نادرة كالكبريت الأحمر الذي يعز وجوده، فئة لديها القاعدة العلمية الصلبة في تخصصها، والخبرة العملية الواسعة في نفس التخصص، والقدرة على الجمع والتجسير بين العلم والخبرة، والقاعدة الإبستمولوجية الصلبة في أصول التخصص، وفنون نقل العلم والخبرة، والثقافة الموسوعية الداعمة للتخصص، والقدرة على استخدام تكنولوجيات القطيعة، واليقظة تجاه تحولات المعرفة والتقنية التي أصبحت الحدود الفاصلة بينهما هلامية، والتحسين المستمر لكل ما سبق. لكن من أين نأتي بكل ذلك أو بعضه؟ من أين تأتي مثلا الخبرة لمن دخل الجامعة طالبا واستمر فيها مدرسا وباحثا دون أن يخبر في حياته ولو لمرة واحدة بالخطأ السوق وحاجاته ويجرب في حياته مدارس الحياة المتعددة؟ **وهل يستطيع ابن المنظومة أن يُعَلِّم شيئا مفيداً للحياة وللسوق وللمستقبل غير إعادة إنتاج المنظومة!؟**

كم من مدرس جامعي يستطيع الجمع بنجاح بين التدريس والبحث العلمي؟ كم من مدرس جامعي يستطيع اختراق الحدود التقليدية الفاصلة بين العلم والخبرة وينجح في الجمع بينهما بصفتي العالم والخبير في تخصصه في نفس الوقت؟ كم من مدرس جامعي اليوم يتقن استخدام تكنولوجيات القطيعة؟ كم من مدرس جامعي يملك التكوين الموسوعي في العلوم والفنون المجاورة لتخصصه على الأقل لكي

يستطيع أن يقدم لطلابه نظرة شمولية عن المشكلات التي يدرسها لهم؟ وهل كل هذا متاح للجميع في إطار مؤسسي أم متاح فقط بشكل فردي لحالات خاصة من أصحاب الإرادات الاستثنائية والمشاريع العلمية والعملية الشخصية المحسوبين على رؤوس الأصابع والذين غالبا ما ينتهي بهم المطاف إلى الهجرة إلى أرض الله الواسعة بعيدا عن ضيق بيئة الجامعة وضيق فرصها، ومتاح للذين يفهمون اللعبة الجديدة للمعرفة في بعدها العالمي الرأسمالي فيحافظون على حد أدنى من الانتماء لمؤسستهم الجامعية البئيسة بنظرهم وينخرطون بجدية في شبكات دولية للتعليم والتدريب والبحث العلمي التي تفتح الفرص والآفاق حقا وحقيقة؟

نهاية التخصص

من المؤكد أن زمن التخصص انتهى، وأن المستقبل للتكامل المعرفي، والتخصص المُعَزّز بالخلفية المعرفية المتنوعة خاصة في التخصصات المجاورة.

مظاهر هذه النهاية متعددة:

- الثورات التكنولوجية بعمقها وشموليتها وسرعتها قتلت التخصص، فالتوجه المتزايد نحو الأجهزة الذكية مثلا (الهاتف الذكي، التلفزة الذكية، السيارة الذكية...) ما كان لينجح لولا تظافر تخصصات متعددة وتكاملها.

- التحولات في سوق الشغل والمهن والوظائف والجدارات، وانمحاء الفروقات بين الوظائف المتخصصة في الشركات والمنظمات، وتراجع الطلب في سوق الشغل على الكفاءات المتخصصة لصالح الكفاءات ذات التجارب المتنوعة والخلفية المعرفية المتنوعة والقادرة على القيام بأدوار متعددة ومختلفة في نفس الوقت.

- نهاية الحدود الفاصلة بين التخصصات العلمية، فالظواهر البيولوجية مثلا أصبحت تدرس من منظورات فيزيائية واجتماعية.

- الحدود الفاصلة بين العلم والتقنية انتهت أيضا أو تكاد؛ فالعلم أصبح تقنية، والتقنية أصبحت علماً، والمفهوم التقليدي للتقنية بما هي "تطبيقات العلم" انتهى.

- نهاية الحدود الفاصلة بين العلم والسياسية.

أما أسباب نهاية التخصص فمتعددة أهمها:

- الطابع المعقد للظواهر والأنساق والبنيات الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، وعجز المعرفة المتخصصة عن فهمها وتفسيرها بشكل دقيق وشمولي؛ فقد أنتجنا مثلا معارف متخصصة ضخمة عن الإنسان من مواقع معرفية متخصصة متعددة كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ واللسانيات... ورغم هذا الكم الهائل والضخم من المعارف المتخصصة لا زال فهمنا للإنسان مجزءاً ومحدوداً.

- الحاجة إلى وضع نهاية للطابع المجزئ والذري للمعرفة الإنسانية، أي وضع نهاية للعلم القائم على التخصص المعرفي بدل التكامل المعرفي.

- التحولات التي تعرفها الجامعة في القرن الواحد والعشرين، والدعوات المتزايدة لجعل التدريس والبحث العلمي في الجامعة يقوم على التكامل المعرفي بدل التخصص المعرفي.

- توجه الدول والشركات والمنظمات وبشكل متزايد نحو سياسات شمولية مما يفرض تحول المقاربات والمناهج المستخدمة من الخبراء من مقاربات متخصصة إلى مقاربات مندمجة متعددة التخصصات وتكاملية.

إن عصر النموذج الإرشادي للعلم والمعرفة القائم على التخصص والتخصص الدقيق والمزيد من التخصصات الجديدة قد استنفد وظيفته وبلغ نهايته، وها نحن نتحول نحو باراديغم Paradigme جديد للمعرفة قائم على **التكامل المعرفي**.

نهاية الشهادة

بعد هَوَس الدبلومات والشهادات الأكاديمية والمهنية ها نحن الآن نستعد للدخول في سراب الكفاءات والجدارات والمهارات والقدرات. الرأسمالية المتوحشة المفترسة تتقن التحكم في العبد والمعبود والمعبد، ولها لكل مرحلة ألعابها أي مصالحها ورهاناتها وما يرتبط بها من مشاريع واستراتيجيات وخطابات .

الذين صمّموا لعبة الشهادات أتقنوا تصميم اللعبة: الحصول عليها لا يمنحك أشياء مهمة، وعدم الحصول عليها يحرمك من أشياء كثيرة. الآن يتحوّلون إلى لعبة جديدة: الكفاءة بدل الشهادة.. والسؤال هو: كيف نلعب هذه اللعبة الجديدة دون أوهام؟ كيف نفهم أولا رهانات اللعبة القديمة؟ وكيف نفهم ثانيا رهانات وطريقة اشتغال اللعبة الجديدة؟ وكيف ندخل بعد كل ذلك ومعه في اللعبة الجديدة سادة لا عبيداً؟ وهل يكون سيدا من يدخل في لعبة صنعها غيره!؟

دعونا قبل الإجابة على هذه الأسئلة نؤكد على مبدأ منهجي مهم. عندما يتعلق الأمر بالألعاب ورهاناتها فلا فائدة من التحليلات اللغوية والاصطلاحية والعلمية والتقنية حول علاقة الشهادة بالكفاءة وأهمية كل منهما وتكاملهما ومن سيُقَوّم من وماذا وكيف؟ ولا طائل أيضا من وراء التعلق بخيارات مثالية كالعصامية التي لا وجود لها إلا في أذهان الذين يعتقدون في وجودها لأن النجاح والفشل والوعي بهما لا تتحكم فيه

الشهادة أو الكفاءة أو العصامية وإنما جاذبيات اجتماعية علينا الوعي بها للتحرر منها. في ميدان صراع المصالح لا قيمة للأفكار والمشاعر إلا بمقدار قدرتها على تعزيز المصالح عند توظيفها.

الشهادة أم الكفاءة؟ تبدو هذه المفارقة مثيرة للسخرية والضحك! فالشهادة إشهاد، أي وثيقة تثبت امتلاك المشهود له معارف (الشهادة الأكاديمية) أو مهارات (الشهادة المهنية)، فما وجه التعارض إذن؟ أليست الشهادة والمشهود له وجهين لعملة واحدة بل شيئا واحداً؟

إن الأمر في حقيقته لا يتعلق بالشهادة ولا بالكفاءة وإنما بلعبة الإخفاء المعروفة، أي بنظامين يُراد منهما أداء وظيفة إيديولوجية؛ الأول اخترع لتلبية احتياجات الرأسمالية الصناعية في الماضي واستنفد وظيفته، والثاني في طور التشكل والاختراع لتلبية حاجات الرأسمالية المعرفية في المستقبل، ورغم اختلاف آليات التلاعب بالوعي ووسائله فاللعبة واحدة هي لعبة الإخفاء. **إن السلطة في كل المنظمات والمجتمعات وعبر التاريخ تحتاج إلى إخفاء التلاعب بالوعي لمضاعفة مفعول العبودية**. إن الإخفاء هو أحد مبادئ الفعالية، والحاجة إلى الإخفاء المستمر يفرض التجديد المستمر أي يفرض الانتقال من لعبة الشهادات إلى لعبة جديدة.

قبل سنوات كان توجه الكثير من الدول، في إطار تجديد اللعبة، نحو تعزيز سلطتها المادية والرمزية بحصر دور الجامعات في منح شهادات

وطنية فقط وإعطاء "الدولة" وحدها حق منح "شهادة دولة" (مثال فرنسا والدول التي تدور في فلكها مع نظام LMD)، لكن يبدو أن خيارات الرأسمالية العالمية أذكى وأقوى وأشمل من الإصلاحات المحدودة والغبية لرأسمالية الدولة الوطنية: إنهاء لعبة الشهادة جملة وتفصيلا واستبدالها بلعبة جديدة تضمن المصالح الاقتصادية للشركات الرأسمالية العالمية التي تبحث عن الكفاءة لا الشهادة وفي أسواق دولية لا محلية.. إنها عملية البيع بالجملة وبالتقسيط لكشط الأسواق المحلية والاقليمية والعالمية على حد سواء وترويض العبد والمعبود والمعبد. كان الله في عون الرأسمالية الوطنية !

إننا نعيش فترة انتقالية من اقتصاد الشهادات إلى اقتصاد الكفايات، والأمر في العمق لا يتعلق بتحولات سوق الشغل، أو بالتطور التكنولوجي السريع الذي قتل التخصص وذوّب الفروقات بين الوظائف المتخصصة في المنظمات، أو بالصعوبات المتزايدة التي تصادف مدراء الموارد البشرية في ربط الشهادات بالمهن بسبب التحولات السريعة في المهن والكفاءات (أكثر من نصف مهن المستقبل غير موجودة اليوم)، وإنما بالرهانات الجديدة للرأسمالية العالمية المتوحشة المفترسة التي ترى في كل شيء مجرد فرص استثمارية، بل ترى الكون بأكمله مجرد عقار لا يحتاج لغزوه وحكمه سوى إلى شركات استثمارات عقارية .

من منظور اجتماعي لا فرق بين الشهادة والكفاءة، فقيمتهما معاً مشروطة بالاعتراف الاجتماعي بهما من طرف سلطة حكومية أو جهة

مُشَغِّلة. وعليه، لن تكون الشهادة ولا الكفاية الحصان الرابح في مواجهة تحديات سوق الشغل وعالم الأعمال في المستقبل، لأن المؤكد أن اللعبة الجديدة سيتم تصميمها لصالح السوق الدولية وعلى حساب الأسواق المحلية والوطنية، وستكون حصيلة اللعبة الجديدة بنفس منطق ورهانات اللعبة القديمة: الحصول على الكفاية لا يمنحك أشياء مهمة، وعدم الحصول عليها يحرمك من أشياء كثيرة! وستكون الفرص أمام حاملي الكفايات شبه منعدمة لأن التنافسية ستتم في سوق عالمية للكفايات (بعض الدراسات الاستشرافية تقول أن نسبة البطالة سنة 2070 ستكون 80%) .

ويبقى السؤال المصيري قائما: من هو الحصان الرابح؟ وكيف نمتطيه بذكاء؟



الفصل الثالث

نهايات في المجال الثقافي والإعلامي



نهاية الوسائل التقليدية لنقل المحتوى

الإنترنت طوفان كبير ضرب وبقوة كل الوسائل التقليدية لنقل المحتوى واستقباله، وقادها بدورها إلى محطتها النهائية. إنه الطريقة الأكثر انتشارا والأقل كلفة لصانعي المحتوى ومستقبليه على حد سواء، وستذهب كل الوسائل التقليدية لنقل المحتوى واستقباله إلى متحف التاريخ.

مظاهر هذه النهاية متعددة، منها:

- نهاية الكتاب الورقي بحيث أصبح الكتاب الرقمي متاحا على كل الأجهزة الإلكترونية من حواسيب ولوحات وهواتف ذكية وأجهزة خاصة لقراءة الكتب.
- نهاية الصحف الورقية حيث أصبحت صحف العالم متوفرة على كل أنواع الأجهزة الإلكترونية وتحولت أغلب الصحف إلى النشر الإلكتروني لمحتواها.
- نهاية التقرير الورقي والمراسلة الورقية، فالانتقال القسري إلى الإنترنت في مجالات العمل بسبب جائحة كوفيد 19 سرّع بإنهاء الوسيلة الملموسة المقابلة.

- نهاية الساتل والفضائيات التقليدية حيث انتهت طريقة الاستقبال باستخدام الصحن اللاقط والرسيفر لالتقاط البث عبر الأقمار الصناعية.
- نهاية الوسائل التقليدية لنقل واستقبال الأفلام مثل كاسيت الفيديو والأقراص المضغوطة واستبدالها بشبكات بث أفلام عبر النت كنتفليكس وستارز بلاي.
- نهاية الوسائل التقليدية لنقل واستقبال الموسيقى مثل الكاسيت والأقراص المضغوطة واستبدالها بمنصات متخصصة في بث الموسيقى عبر النت كالأيتونز.
- نهاية الإعلان عبر الوسائل التقليدية، فالمعلن الذي يضخ أمواله لتحقيق الأرباح شد الرحال أيضا إلى الإنترنت الذي وفر له خيارات الاستهداف بشكل دقيق وعملي.
- تراجع التسويق التقليدي والتحول الكبير نحو التسويق الرقمي الذي يوفر خيارات أكبر واستهداف أدق وتكلفة أقل.
- استحواذ الإنترنت والوسائل الرقمية لنقل واستقبال المحتوى على حياة الأفراد والمنظمات طيلة فترة الحجر الصحي أثناء أزمة الوباء العالمي كوفيد 19.

- وفرت التغريدات والتعليقات على الشبكات الاجتماعية أدبا بديلا للأدب التقليدي أصبح يعرف باسم الأدب الرقمي .
- تزايد ظاهرة الكاتب الرقمي والأدب الرقمي، وظهور مستخدمين للشبكات الاجتماعية يقدمون محتوى رقميا يستقطب الجمهور أكثر مما تفعله وسائل الإعلام التقليدية أو الكتاب التقليديون .

أما مزايا نقل واستقبال المحتوى عبر الإنترنت فمتعددة أيضا، منها :

- خيارات أسهل وأجود وأسرع لصانع المحتوى وناقله .
- خيارات عملية وسهلة وسريعة لمستقبل المحتوى: القارئ أو المستمع أو المشاهد أو المتدرب أو المتعلم ...
- ملاءمة نقل المحتوى واستقباله عبر الإنترنت لوقت الناقل والمستقبل على حد سواء ولأدواتهما .
- كسر حاجز الوقت بتوفير إمكانية المتابعة وإعادة المتابعة في أي وقت .
- قلب علاقة التحكم بحيث أصبح متلقي المحتوى هو المتحكم وليس صانعه .

- توفير المحتوى المتزامن حيث يجري تداول المحتوى في الزمن الحقيقي .
- على مستوى الربحية يعتبر نقل المحتوى عبر الإنترنت أكثر ربحية من نقله عبر أي وسيلة تقليدية أخرى: القيمة السوقية لتطبيق نتفليكس الذي لا يقدم سوى أفلام ومسلسلات بلغت نحو 100 مليار دولار وعدد مشتركيه بلغ نحو 120 مليون مشترك !

سيعم الكساد قريبا ما بقي من وسائل تقليدية لنقل المحتوى واستقباله ولن تجد من يبحث عنها أو يستخدمها، وعلينا أن نعمل بأسرع ما يمكن على فك الارتباط بما بقي من عادة الارتباط بالورق والصحن اللاقط والأقراص المضغوطة، فكما انقرضت أشرطة الكاسيت وأجهزة الفيديو القديمة سينقرض ما بقي من وسائل تقليدية لنقل المحتوى واستقباله في المرحلة المقبلة، **وسينقرض معها كل من لا يزال يبحث عن متعة القراءة من كتاب ورقي أو تقرير مطبوع، ومتعة المشاهدة من كاسيط فيديو أو قرص مضغوط!**

نهاية الإعلام التقليدي

منذ الثورة الرقمية في نهاية التسعينيات وبداية القرن الحادي والعشرين، شهدت وسائل الإعلام التقليدية أزمة غير مسبوقة لا ترتبط فقط بتغيير القنوات والوسائط والنموذج الاقتصادي، ولكن أيضًا بالتشكيك القوي في مصداقية الإعلاميين والصحفيين. خلال عقدين من الزمن تحولت تدريجيا ما أصبح يسمى بوسائل الإعلام التقليدية التي كانت سائدة ومهيمنة إلى مقاولات مفلسة أو في طريقها إلى الإفلاس، مما سمح تدريجياً لوسائل الإعلام "البديلة" - الشبكات الاجتماعية والمدونون والمؤثرون - باكتساب شعبية واكتساح الميدان .

مظاهر هذه النهاية متعددة :

- يشهد الحقل الإعلامي اضطرابًا حقيقيًا، حيث نشهد كل يوم اختفاء وإفلاس مؤسسات إعلامية تقليدية، وفي المقابل نشهد ظهور وسائل إعلام جديدة تكتسب مصداقية كبيرة وانتشارا سريعا .

- تراجَع حضور الإعلام التقليدي في العقد الأخير بشكل كبير جداً، فأغلب الإحصاءات تؤكد أن الفئة العمرية 18-35 سنة تستمد أخبارها من شبكة الإنترنت بعد أن كانت إلى زمن ليس ببعيد تعتمد على التليفزيون، كما أن النسبة الغالبة لهذه الفئة العمرية لم تعد تعتمد على الصحف أو

التليفزيون لمتابعة الأخبار بل أصبحت تعتمد على الهاتف الجوال الذكي المرتبط على مدار الساعة بمنصات شبكات التواصل الاجتماعي كمصدر رئيس لتصفح الأخبار.

- يكتسب الإعلام الجديد كل يوم مواقع جديدة في حياة الأفراد والمؤسسات، وغيَّرت وسائل التواصل الاجتماعي علاقتنا بوسائل الإعلام، كما غيَّرت أيضًا نماذج أعمال المؤسسات الإعلامية وظروف عمل الإعلاميين والصحفيين.

- ابتكر الإعلام الجديد تقاليد جديدة في مهنة الصحافة والإعلام لم يخطر ببال الإعلام التقليدي الولوج إليها، من قبيل مشاركة المتلقي في عملية النشر، ومقدرته على التفاعل مع المحتويات الإعلامية، وإنتاج المعلومة التي قد ترتقي في بعض الأحيان إلى قيمة الخبر الذي يأتي به الصحفي.

- أصبح الإعلام الجديد مزعجًا للإعلام التقليدي، بحيث دفعه إلى مراجعة الكثير من وسائله وأساليبه وأدواره وتموقعاته.

- قبل ثورة الإعلام الجديد كانت ستة كيانات كبيرة تمتلك 90% من وسائل الإعلام الأميركي وهي: جنرال إلكتريك، وديزني، وفياكوم، وتايم وارنر، وسي بي أس، ثم نيوز كورب

وقناتها الإخبارية فوكس نيوز. لكن مع ثورة الإعلام الجديد أصبحت الكيانات الجديدة الضخمة التي تمتلك وسائل الإعلام الجديد هي غوغل وفيسبوك وآبل.

أما أسباب نهاية الإعلام التقليدي فمتعددة، بعضها يرتبط بعيوب وحدود الإعلام التقليدي، وبعضها نابع من المزايا الجديدة التي يتيحها الإعلام الجديد، ومن أهم هذه الأسباب ما يلي:

- التكنولوجيات الجديدة التي عدَّلت أشكال بثِّ المحتوى الإعلامي، وأصبحنا أمام كم هائل من الحوامل والقنوات الباثَّة للمضامين الإعلامية. إننا أمام ما يشبه حالة من الرشد والنضج المتقدم في تكنولوجيات الاتصال والإعلام قائمة على نضج بنية الشبكات اللاسلكية، والاتجاه نحو المزيد من تصغير قنوات الاتصال حتى تكون في متناول الجميع، وقابلية تلك الوسائط للحمل والتنقل.

- ظاهرة الارتباط الدائم بالشبكة عزّز الانتشار الواسع للإعلام الجديد وعلى جميع المستويات وبشكل يومي ومتسارع.

- الإعلام الجديد ليس إعلامًا جديدًا على مستوى التقنية فقط، بل إن جدَّته وثورته تكمن أيضًا على مستوى

المضمون والمحتوى والفكر الذي يحمله والأنساق الاجتماعية الجديدة التي بدأ في إفرازها داخل المجتمع.

- اختفاء ثقافة الإعلام المكتوب في مقابل هيمنة ثقافة الإعلام التكنولوجي، وقد كان لهيمنة الصور وانحسار الكلمات دور في تسريع نهاية الإعلام التقليدي وتعزيز مكانة الإعلام الرقمي.

- الاعلام الجديد يتيح مواجهة الحرب المعرفية والاعلامية النازلة من أعلى باستراتيجيات ذكية من أسفل، وهذه الميزة لا يتيحها الإعلام التقليدي.

- الإعلام الجديد يميل إلى تشتيت القوة، فالسيطرة المركزية التي تمثل أحد أهم عيوب الإعلام التقليدي، لا توجد بنفس الحدة في الإعلام الجديد، وقد تضعف مستقبلا إذا وجدت من يركب موجته باستراتيجيات ذكية.

نهاية المثقف

نهاية المثقف لا نصف مثقف.. أنصاف المثقفين مجرد هواة و"بتاع كلو" فلا ينتهون أبداً !

نصف مثقف هو قارئ يتميز بالنباهة في الصباح والجرأة بقية اليوم؛ يقرأ الصحف في الصباح ويتصفح عناوين بعض الكتب، وعندما يأتي مجلساً يُوجه دفّة الحديث نحو الموضوع الذي قرأه في الصباح، فيخلق بذلك فرصته لكي يتألّق .

المثقف صاحب عُمق وحامل رسالة، أما نصف مثقف فحاطب ليل ووكيل سلطة، لذلك فهو أخطر على المجتمع من أمّي .

وأنصاف المثقفين، في أحسن حالاتهم، رجال إطفاء يلاحقون الحرائق اليومية التي تسبب فيها غيرهم.. القضايا الخاطئة والمغلوطة التي يثيرها صانعو الألعاب هي التي تحدد أدوارهم.. وهم جادون في الانخراط في لعبة الأسئلة المغلوطة التي يطرحها المتحكمون في اللعبة لتحويل الأنظار عن الأسئلة الحقيقية .

أما المثقفون فيعيشون للأسف نهاية عصرهم الذهبي، وهم في طريقهم أيضاً إلى الانقراض .

ومظاهر هذه النهاية متعددة :

- إعلان الكثير من المثقفين عن استقالتهم واستحالة استمرار القيام بأدوارهم في ظل الانتصار المتزايد للمال والسلطة، والانتشار المتعاظم للعبث والتفاهة .

- لم يعد المثقف وحده من يعتلي المنابر ويأخذ الكلمة، بل أصبح كل من يملك منبراً افتراضياً "مثقفاً"، أو لنقل بتعبير أدق أصبح المثقف المُكَرَّس شخصاً عادياً لأن الفوارق الوظيفية لم تَعُد واضحة.. لقد تلاشي المفهوم التقليدي للمثقف، لأن الكل أصبح بإمكانه لعب دور المثقف فقط من خلال استحداث قناة خاصة به وتكوين جمهور صغير خاص به .

- نهاية ثقافة الالتزام والالتزام الثقافي وزمن القضايا الكبرى.. أصبحت الثقافة الوحيدة هي ثقافة تلفزيون الواقع والشبكات الاجتماعية، والالتزام الوحيد هو الالتزام نحو الذات وأنانيتها، والقضية الكبرى هو المعيش اليومي ونجاحاته وخيباته وأحلامه وعشقه وروتينه ...

- الناس، أغلب الناس، أصبحوا يتطلعون فقط إلى ما هو بسيط وسطحي ومَرِح وسريع الاستهلاك، وينفرون من كل ما هو معقد وعميق وجاد ومُتأن في رحلة طويلة وشاقة .

- نهاية المثقف تتمظهر أيضا في نهاية جيل مثقفي الحرب الباردة والصراعات الأيديولوجية والقضايا الكبرى والمطالبات السياسية والنقابية والحقوقية، في مقابل الانفجار العظيم لأجيال نهاية الحرب الباردة التي تحب الفخامة ومظاهرها، وترفض الخضوع لكل أشكال السلطة ومنها سلطة المثقف، وتستخدم أساليب غير راقية دون أية عقدة، وتستهلك تكنولوجيا المعلومات والإنترنت على مدار الساعة، وتستقي ثقافتها من النت على مدار اليوم، وتعتمد مصادر خفيفة تفتقد إلى الأسس العلمية، وتحضر بقوة في الشبكات الاجتماعية والإنترنت، وتمارس قدراتها التأثيرية من خلالها، وتتواصل على المستوى الدولي، ولا عقدة لها مع الخطأ فهو بالنسبة لها شيء عادي، ولا تُهَوّل من الفشل كما هو الشأن بالنسبة لجيل الحرب الباردة.

أما أسباب هذه النهاية فمتعددة، أهمها:

- **فقدان العالم للمعنى**؛ ففعل الثقافة يستهدف من حيث المبدأ منح المعنى لهذا العالم، لكن الشعور المتزايد لدى المثقفين بأن هذا العالم أصبح بلا معنى يدفعهم بشكل متزايد إلى اليأس والتفكير في التوقف.. إنها حالة الإحباط التي يعيشها المثقفون، والتشاؤم من دور المثقف في زمن

اللامعنى. عندما يبحث المثقف عن نتائج جهوده في تنوير العقول وتحرير الإرادات فإنه لا يجد حوله إلا المزيد من العبث والتفاهة في كل الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإعلامية... انتشر نظام التفاهة، وفقدت الثقافة الجادة قيمتها، بل فقد كل شيء معناه، وانتشرت السطحية على حساب العمق، وتملق السلطة، كل أشكال السلطة، والتقرب إليها على حساب نقدها وتوجيهها .

- **التأثير السلبي للسياسة**؛ لأن كل شيء له علاقة بشكل من الأشكال وفي كل الأحوال بالسياسة. وبما أن السياسة عبث فهي تفسد الثقافة والمثقف كما تفسد كل مناحي الحياة. تغوّل السلطة على المجتمع بشكل عام وعلى المثقفين بشكل خاص، وقمعها لكل صوت حر ومستقل أدى في النهاية إلى انسحاب المثقف من الفضاء العام أو ممارسته نوعا من الرقابة الذاتية تُفقده وظيفته الحقيقية. يوجد مصدران لشرعية المثقف: المصدر الأول هو السلطة من خلال التقرب إليها والدفاع عنها وتبرير خياراتها وتصرفاتها. والمصدر الثاني هو المعرفة والخبرة والمصداقية وقدرة المثقف على استخدامهم لمواجهة السلطة ونقدها. ومع تغوّل السلطة وهيمنتها على كل العوالم الاجتماعية ومنها

الحقل الثقافي، تراجع بشكل كبير دور المثقف المستقل الناقد للسلطة، وهيمن في المقابل دور مثقف السلطة.

- **التأثيرات السلبية للتقنية**، التي فجّرت المعنى الواحد إلى معانٍ متعددة، والحقيقة الواحدة إلى حقائق متناقضة، والأساليب الرفيعة إلى أذواق غير قابلة للنقاش، وحوّلت القارئ من مستهلك إلى "منتهلك" بتعبير ألفين توفلر عالم الدراسات المستقبلية الأمريكي. لقد جعلتنا التقنية نعيش في زمن أصبح فيه كلّ إنسان كاتبا.. أصبح الكلّ، دون استثناء، يكتب وينشر ويمارس النقد ويحاضر ويُدَرِّب ويقدم استشارات ويُفتي في العالم الافتراضي، بعد أن كانت هذه الأفعال الثقافية حكراً على فئات متخصصة تمتلك الرأسمال الثقافي والرمزي اللازم لممارسة فعل التثقيف.

- **مسؤولية المثقف نفسه** عندما يستسلم لتيار العبث والتفاهة، ولهيمنة المال والسلطة. المثقف لا يستقيل أبداً.. يمكن للمثقف أن يغيّر مواقعه لكن لا يمكنه أبداً أن يغيّر مواقفه أو يستقيل. المثقف هو ضمير المجتمع والإنسانية والمتكلم الرسمي باسمهما ما دامت قضايا المجتمع والإنسانية هي ما يشغل باله، فإذا استقال سيصبح العالم بلا ضمير.

- **وأخيراً عمّقت جائحة "كورونا" أزمة المثقفين** عندما تسبّبت في حالة من الإغلاق التام شملت أيضاً الصناعات الثقافية، فلم يتبق أمام المثقفين إلا الفضاء الافتراضي لمن يتقن استخدامه.

هذه هي أهم الأسباب، لكن توجد إلى جانبها لائحة أخرى من الافتراضات عن أسباب نهاية المثقف لها ما يبررها ويجب أن نتساءل عنها أيضاً: **هل هو الشعور بالإعياء؟ هل هي لحظة استراحة؟ هل هي نتيجة حتمية للإفراط في فعل التثقيف؟ هل لأن الأفق مسدود؟ هل هي نهاية التاريخ وانتصار نظام التفاهة؟ هل المجتمعات أصبحت غير قابلة للتغيير؟ هل المثقف يعيش على الخيال والأوهام أكثر مما يرتبط بالواقع؟ هل المشكلة في قصور المناهج والأدوات التي يستخدمها المثقف؟ كيفما كان الجواب يبقى الشيء الوحيد المؤكد هو أن نموذجا معيناً من المثقفين على الأقل قد انتهى!**

نهاية التفكير

يبدو أن زمن النقاشات والصراعات الفكرية الكبرى قد انتهى، وأن عصر المفكرين الكبار قد اختفى، وأننا نستقبل فراغًا فكرياً كبيرًا سيتركنا في حيرة من أمرنا .

جيل جديد من "المثقفين" وأنصاف المثقفين، بلا تسييس يملك قنوات التأثير فلا يمارسه، **بلا معرفة** يملك المعلومة وسرعة المعلومة لكن لا يستطيع بناء المعرفة ولا حتى استهلاكها، **بلا التزام** إلا ما كان من التزام بقضايا قريبة من مخاوفه الحالية، **بلا مشروع عالمي أو مجتمعي** لأن المشاريع المشتركة الوحيدة المتبقية هي المشاريع القطاعية القائمة على المطالبات.. جيل متقلب سهل التأثر يفكر برغبات جمهوره ويكتب لهم ما يرغبون في سماعه. **التفكير مخاطرة ولا أحد اليوم أصبح مستعداً للمخاطرة بفقدان قرائه الافتراضيين ورؤية تقييمه الاجتماعي ينخفض** .

يبدو إذن أن التفكير في طريقه إلى محطته النهائية أيضاً، ومظاهر هذه النهاية متعددة :

- **التحول من المعرفة إلى المعلومة** بل إلى سرعة المعلومات المدمرة للتفكير، لأن المفكر يحتاج إلى وقت طويل للتفكير وهو دائما آخر من يتكلم .

- **هيمنة «البياناتيّة»** وهو أسلوب مدمر للمعرفة، لأنه يُلغي التفكير.

- **انحسار مساحة السلوك العقلاني** لصالح المزيد من السلوكيات العاطفية والغريزية.

- **هيمنة الرداءة والتسطيح** بأنواعه: التسطيح العاطفي والتسطيح الشعبوي والتسطيح الأكاديمي.

- **هيمنة الصور وانحسار الكلمات**. لقد كان لتحول البشرية من التقليد الشفهي إلى الكتابة تأثير كبير على وعي الأفراد والمجتمعات، فمع تزايد الكلمات اتسعت دوائر الوعي. لكن يبدو أننا نعيش في هذا العصر تراجعاً خطيراً لهذا المنحى التاريخي التوسعي لدوائر الوعي، بسبب تحول العالم من الكلمات إلى الصور. إن مساحات الوعي تضيق بتناقص الكلمات وزحف الصور.

- **هيمنة حقل الإعلام الجديد على الحقل الأكاديمي**، وتناوله للمعرفة كأجزاء صغيرة ومتناثرة من المعلومات دون أي رابط أو مشروع متكامل.

- **هيمنة تكنولوجيا الشبكات الاجتماعية** على الحياة المعاصرة، وهذه الشبكات غير مصممة للتمييز بين

الحقائق والأباطيل، أو التحقق من الدقة، أو تصحيح الأخطاء. بل هي بالعكس تماما، مبنية لتعظيم عدد النقرات والمشاركات والإعجابات.

- **تآكل العقل الناقد وتراجع التعليم الفعّال وموت البيئات الفكرية الحيّة**، وما يترتب على ذلك من تراجع قدرة المنظومات التربوية التعليمية على تعزيز تخريج مثقفين ومفكرين كبار.

- **هيمنة طلب الخبرة الفنية المتخصصة على طلب المعرفة والفكر**، وأولوية الحلول الفنية السريعة على الحلول المعرفية والفكرية.

إنها إذن نهاية التفكير، لكن إذا تفاءلنا واعتبرنا أن التفكير لا ينتهي وأن المعرفة لا تموت، سيكون التفسير البديل لما يحدث هو ظهور مفهوم جديد للمعرفة والتحول نحو **نظام جديد للمعرفة**. أما فرضيات هذا المفهوم الجديد للمعرفة فهي:

- الدور الجديد للمعرفة أدى إلى تغييرات في توزيع السلطة.

- كل تغيير في نظام المعرفة يترتب عنه تغيير في نظام صناعة الثروة ونظام التحكم.

- كل تغيير في نظام المعرفة يصطدم بالمصالح القائمة، ويؤدي بالتالي إلى نشوب صراعات مصالح .
- المصادر الوحيدة للسلطة هي المال والمعرفة والعنف .
- كل نوع من السلطة قابل للتحول إلى نوع آخر .
- أهم عامل على الإطلاق هو نوعية السلطة .
- العنف سلطة من نوعية متدنية لأن العنف يولد اليقظة والمقاومة .
- الثروة سلطة من نوعية متوسطة فهي أداة أفضل من العنف لأنها تتمتع بمرونة أكبر .
- أعلى نوعيات السلطة هي المعرفة لأنها تتيح التحكم الهادئ وتُغني عن استخدام العنف المادي .



الفصل الرابع

نهايات في المجال الاجتماعي



نهاية المجتمع

مع بدء تفكك الرأسمالية الصناعية بدأت كل المؤسسات الاجتماعية المرتبطة بها في التفكك أيضاً: الأسرة النووية والمدرسة العمومية والجامعات التقليدية والوظيفة الحكومية وأنظمة التقاعد والمؤسسات التجارية والنقابات والأحزاب السياسية... وفي كثير من الحالات لم يقف الأمر عند حدود التفكك بل فقدت معناها بفقدان قدرتها على القيام بوظائفها.. إنه تحلل الجثث وتعفنها بعد موتها !

انهار المجتمع وانهارت معه الكثير من القيم والمؤسسات التي وضعنا فيها ثقتنا في الماضي مثل الأسرة والمدرسة والجامعة والتخصص والشهادة والوظيفة وأنظمة التقاعد والسوق والنقابة والحزب.. انهار المجتمع وانهارت أيضا الكثير من آليات التضامن العضوي التي تعطيه معناه واتجاهه.. انهار المجتمع وحلت محله الفردانية المتوحشة.. والمثير للشفقة والسخرية أن هذه الفردانية نجدها في الكثير من الحالات ممزوجة بالهوية الدينية أو الثقافية أو العرقية !

ومظاهر هذا الانهيار متعددة :

- الكثير من العادات والتقاليد والطقوس التي كانت تساهم في توثيق أواصر العلاقات الاجتماعية وتشكيل الروابط الاجتماعية المختلفة

وترسِّخ المجتمع في الفرد وتُدمج الفرد في المجتمع وتجعلنا أكثر إحساساً بالمجتمع تراجعت بشكل كبير أو اختفت نهائياً .

- على الرغم من ثورة الاتصال الرقمي والانتشار الواسع لشبكات التواصل الاجتماعي فإن شعور الأفراد بالعزلة والوحدة يزداد انتشاراً وحِدّة .

- أصبحنا نعيش وبشكل متزايد داخل مجتمعات تحكمها الأنانيات المستعلية والرغبات الفردية والميل النرجسيّ العميق نحو الفردانية .

- زادت أزمة كوفيد 19 في تأزيم وضع المجتمع والقضاء على ما بقي من طقوسه ومظاهره الاجتماعية، فلم يعد مسموحاً بمدِّ الأيادي للمُصافَحة، ولا الاقتراب من بعضنا ضمانا لمسافة التباعد الاجتماعي، وصار كل شيء يجري عبر وسائل التواصل الرقمي مما جعل التواصل الاجتماعي يتم بدون قرب فيزيائي جسدي يعطي للجماعة والمجتمع تجسيدهما المادي .

أما أسباب هذا الانهيار فمتعددة أيضاً، أهمها :

- فقدان المجتمع والمؤسسات المكونة له الكثير من قدرته على إدماج الأفراد وتوجيههم؛ فقدت الأسرة القدرة على التربية، وفقدت المدرسة القدرة على التعليم، وفقد الحزب القدرة على التأطير ...

- لم يعد العامل الأساس الذي يُحرّك الاتصال في عالم اليوم هو الحاجة الوجودية إلى الغير وإرادة التواصل الإنساني وإنما الإحساس المتزايد بالفراغ والرغبة المتعاظمة في التعبير الأناني عن الذات.

- تحوّلت الكثير من القيم الاقتصادية النسبية كالإنتاجية والعائد إلى قيم مُطلَقة وساهمت بإطلاقيتها في تدمير القيم الاجتماعية.

- إن اختفاء الكثير من القيم والعادات والتقاليد والطقوس التي كانت تعزز من قوة العلاقات الاجتماعية كان بسبب عوامل متعددة لكن العامل الأساس الذي قضى على ما بقي منها وبشكل سريع وفعّال هي وسائل التواصل الاجتماعيّ الحديثة التي سحقت البُعد الاجتماعيّ في عمليات الاتصال بين الأفراد لأنها جعلت من «الأنا» مركزاً ومداراً لاهتماماتها.

في أكتوبر 1987 قالت رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت تاتشر (وقد كانت أحد الوجوه البارزة للسياسات الرأسمالية المتوحشة المفترسة) قولتها المشهورة: "**المجتمع لا وجود له**".. وبعد ثلث قرن بدأ يتضح بالملموس لمن لم يقتنع بعد أن المجتمع فعلاً لم يعد له وجود!

هل حصل هذا بتخطيط من الذين يخافون من تماسك المجتمع ويريدونه مفككا لزيادة أعداد المستهلكين (مع ارتفاع معدلات الطلاق مثلا ترتفع أعداد الأسر المستهلكة)، ويخافون من يقظة المجتمع ومقاوماته ويريدونه مجرد مستقبِل سلبي لسياساتهم؟ أم أنه

التطور"الطبيعي" لمؤسسة كنا نعتقد خطأً أنها طبيعية وتبين أنها أيضا أحد اختراعات التاريخ البشري، وكما اختفت "الجماعة" في مرحلة تاريخية سابقة آن الأوان ليختفي "المجتمع" أيضا؟ أم أننا كنا نتوهم وجود شيء اسمه "المجتمع" والحقيقة أنه لا وجود له كما قالت مارغريت تاتشر وأن الأشياء الوحيدة التي تملك صفة الوجود الفعلي هم الأفراد والأسر؟ وأي أسر وأي وجود فعلي: الأسر التي تملك السلطة والثروة العظيمة وحكمت العالم عبر التاريخ، أم الأسر الطيبة التي لا وزن لها في ميزان الثروة والسلطة ولا ترى في العائلة إلا علاقة دم ورابطة محبة ومحضنا لإعادة الإنتاج؟

كيفما كان الجواب فإن الناس، أكثر الناس، الذين وضعوا ثقتهم في المجتمع يرون الآن الانهيار التام لقيمه ومؤسساته التي تتساقط تباعا أمام أعينهم كأوراق الخريف.

نهاية الطبقة المتوسطة

في أكتوبر 1987 قالت رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت تاتشر (وقد كانت أحد الوجوه البارزة للسياسات الرأسمالية المتوحشة المفترسة) قولتها المشهورة: "**المجتمع لا وجود له**".

هذا التصريح ما هو إلا تعبير عن سياسة ذكية وماكرة انتهجها المهيمنون للقضاء على كل مقومات حياة المجتمع، أما النتائج فمتعددة وكارثية: أزمة التمثيلية السياسية، انحطاط الطبقة السياسية، الانقسام الكبير للحركات الاجتماعية، تدهور الطبقات الشعبية، البطالة بأنواعها، تحول المجتمع إلى جماعات صغيرة عرقية ودينية وحلول الولاء والانتماء للجماعة محل الاحساس بالانتماء للمجتمع... ومن النتائج أيضا نهاية الطبقة المتوسطة .

انتهى المجتمع إذن بفعل هذه الانقسامات المجالية والثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وانتهت معه الطبقة المتوسطة. ورغم أنها صمام أمان المجتمع كان يجب أن تنتهي بنظر المُهيمنين، لأنها المصدر الأول للإزعاج والمشاكل والثورات الاجتماعية والسياسية .

مظاهر هذه النهاية متعددة :

- ظاهرة اختفاء الطبقة المتوسطة ليست وليدة اليوم، فمنذ عقود ونحن نعيش هذه الظاهرة بأبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية .

- تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للطبقة المتوسطة وانزلاق أفرادها نحو الأسفل، فقد تم إنهاك هذه الطبقة بغلاء المعيشة والقروض .

- الأشكال الجديدة للفقر بتعبير عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو، والتي قد تُخفي عنا تدهور الطبقة المتوسطة.

- في الهند والصين والدول الصاعدة يبدو ظاهريا أن هناك طبقة متوسطة، لكن في الحقيقة لا توجد طبقة متوسطة، وإنما تحسن في ظروف عيش فئات من المجتمع دون تشكل طبقة متوسطة بالمعنى الدقيق للطبقة الاجتماعية .

أما أسباب هذه النهاية فمتعددة أيضاً، أهمها :

- **أسباب منهجية** تتعلق بتعريف الطبقة؛ فاليوم يوجد عاملون لكن لا توجد طبقة عاملة، وتوجد أطر متوسطة وعليا لكن لا توجد طبقة متوسطة، لأن الطبقة لا تتحدد بعوامل سوسيو-مهنية فقط، وإنما بعوامل ثقافية

وسياسية أيضا، من قبيل الوعي بالوضع الطبقي وبالمصير المشترك والثقافة المشتركة والشعور بالانتماء الطبقي والتعبير عنه والدفاع عنه والعمل على تحسينه .

- **أسباب سياسية**؛ فتاريخيا كانت الطبقات المتوسطة هي الحاملة دائما للواء التغيير، ومصدر الثورات الثقافية والاجتماعية والسياسية، والتخلص منها هو تخلص من أحد أهم مصادر الإزعاج والمشاكل بنظر الطبقة المهيمنة .

- **أسباب إيديولوجية** تتمثل في إيديولوجية نهاية الصراع الطبقي وانتصار الطبقة المهيمنة، وهي إيديولوجية بورجوازية لتعزيز الهيمنة، وصناعة وعي الهزيمة والاستسلام. صحيح أن الطبقة المهيمنة تُحَقِّق كل يوم المزيد من الانتصارات، لكن الصراع الطبقي لم ينته ولا يمكن أن ينتهي أو يتحول إلى شكل آخر من الصراع كما يزعم البعض، لأنه خاصية مميزة للوجود الاجتماعي ولازم له .

- **أسباب اجتماعية**، وتحول الانقسامات والصراعات داخل المجتمع من صراعات طبقية إلى صراعات من نوع آخر عرقية أو دينية بسبب هيمنة الانتماءات الأخرى وخاصة الانتماءات الدينية والثقافية التي دمرت الانتماء الطبقي،

وحرمت المجتمع، بنية حسنة أو سيئة لا فرق، من أحد مصادر حيويته وقوته. وعزّز هذا الانهيار ظاهرة الأغنياء الجدد الذين "عوّضوا" الطبقة المتوسطة العريقة بتقاليدها بشبه طبقة مجتثة لا تقاليد لها ولا أصول.

- **أسباب اقتصادية** تتمثل في تدهور الأوضاع المادية للطبقة المتوسطة وانزلاق أفرادها نحو الأسفل. وحصيلة هذه الانزلاقات هندسة اجتماعية جديدة للطبقية من خمس طبقات: تحت عتبة الفقر، والفقر، والأشكال الجديدة للفقر، والأغنياء في وضعية هشاشة، والذين يملكون كل شيء.

- **أسباب نفسية** تتمثل في الشعور المتزايد لدى أفراد الطبقة المتوسطة بالعجز أمام الانتصارات المتتالية للمهيمنين، وسلوك اللامبالاة والهروب كنتيجة لهذا الشعور.

يجب أن نعترف أن **الطبقة المتوسطة أُنهكت وأُلْبِست أشكالاً جديدة للفقر**، وأن الطبقة الغنية المُهيمنة حققت الكثير من الانتصارات وكسبت المزيد من المواقع، وبالتالي فمهما تسلحنا بالمعرفة المتفائلة فنحن بكل تأكيد أمام شكل آخر من أشكال "**نهاية التاريخ والطبقة الأخير**".

إن معارك الطبقة الشعبية المسحوقة والطبقة المتوسطة المنهوكة، وكفاحهما الأبدي في مواجهة صعوبات الحياة ومتطلباتها إنجاز

بطولي، لكنه إنجاز الطبقات المتواضعة التي تمارس البطولة الحقيقية بشكل يومي ودون ضجة من أجل أن تؤمّن ضروريات العيش وتظل صادقة وشريفة .

أما معارك المال المتوحش والسلطة المُتَغَوِّلة فهو أيضاً إنجاز بطولي، لكنه إنجاز في شن الحروب الطبقية، وصناعة التفاوتات الاجتماعية، وإعادة إنتاج الواقع والمواقع، وحراسة العبد والمعبود والمعبد، ليبقى الأغنياء أحراراً والفقراء عبيداً، عن طريق العبث السياسي والريع الاقتصادي ومناورة الطبقات الشعبية والمتوسطة بالأشكال المختلفة للوهم (مثلا وهم تحقيق الأمن المالي من خلال الأمن الوظيفي، ووهم طبقة متوسطة مزعومة تعيش بوضع مادي في حالة فقر ومظاهر شكلية للغنى).

نهاية الصراع الطبقي

الطبقة الشعبية سُحقت منذ زمان، والطبقة المتوسطة أُنهكت منذ عقود وهي في طريقها لكي تُسحق بدورها، لكن يبدو أن الحرب الطبقية لم تنته بعد، وأن الطبقة الغنية التي كسبت معارك متعددة لم تكسب الحرب الطبقية بشكل نهائي بعد .

في مجال البحث الأكاديمي انقسم علماء الاجتماع في العقود الأخيرة بخصوص الصراع الطبقي إلى ثلاث مدارس :

- **المدرسة الأولى** ترى أن الصراع الطبقي قد انتهى بانتصار الأغنياء الذين خططوا للحرب الطبقية بذكاء وقادوها بدهاء وانتصروا فيها انتصاراً ساحقاً .

- **المدرسة الثانية** ترى أن فكرة "نهاية الصراع الطبقي" يُرَوّج لها حراس المعبد، وما هي إلا إيديولوجية بورجوازية لتعزيز الهيمنة، وصناعة وعي الهزيمة والاستسلام. فالصراع الطبقي بنظرها لا يمكن أن ينتهي لأنه خاصية مميزة للوجود الاجتماعي ولازم له .

- **المدرسة الثالثة** ترى أن طبيعة الصراع الاجتماعي تغيرت من "صراع طبقات" إلى "صراع مواقع"، فقد انتقل الصراع بنظرها إلى داخل حقول العالم الاجتماعي، وتحول من صدام

بالأسلحة التقليدية للصراع الطبقي إلى مواجهة بالأسلحة الجديدة لقواعد اللعبة الاجتماعية ورساميلها .

لكن كيفما كانت حقيقة الصراع الاجتماعي اليوم، فالشيء الوحيد المؤكد هو أن الطبقة الشعبية قد سُحقت تماماً، وأن الطبقة المتوسطة قد أُنهكت وأُلْبِست أشكالاً جديدة للفقر، وأن الطبقة الغنية حققت الكثير من الانتصارات وكسبت المزيد من المواقع، وبالتالي فمهما تسلحنا بالمعرفة المتفائلة فنحن بكل تأكيد أمام شكل آخر من أشكال "**نهاية التاريخ والطبقة الأخيرة**".

قبل سنوات صرّح الملياردير الأمريكي وارين بيفيت: "الحرب الطبقية موجودة، والطبقة الغنية هي التي تخطط لهذه الحرب وتقودها وهي التي تنتصر"، ويكفينا لإدراك الهوة السحيقة التي ولّدها هذا الانتصار أن نستحضر لغة الأرقام؛ فمثلا خلال العقود الثلاثة الأخيرة احتكر 1٪ من ساكنة العالم 93٪ من الارتفاع الذي حصل في المداخيل، فهل يصح نفي حرب الطبقات في ظل التفاوت المهول والمرعب في الناتج الداخلي الخام العالمي؟

نهاية الأسرة

الأسرة باعتبارها مشروعاً انتهت من زمان.. منذ اللحظة التي اخترعت فيها الدولة المدرسة لإلغاء مشروع الأسر مع أبنائها ورقابة الأسر على أبنائها واستبدالها بمشروع الدولة ورقابة الدولة.. يجب ألا ينسينا تطور أشكال المدرسة وتنوع مناهجها وظيفتها الأصلية: المدرسة هي مدرسة الدولة حيث تصنع الدولة من الأطفال عبيداً لها.. نجحت الخطة وتخلت الأسر عن أطفالها وسلمتهم لمدرسة الدولة .

أما الأسرة بوصفها مؤسسة لإعادة الانتاج البيولوجي مكونة من أب وأم وأبناء فهي في طريقها إلى الانقراض؛ فبعد الأسرة الممتدة والأسرة النووية ها هو ذا العالم يتحول تدريجيا إلى الأسر أحادية الوالدية Monoparentale فرصة للرأسمالية المتوحشة المفترسة لمضاعفة مداخيلها بمضاعفة عدد الأسر المستهلكة! (خلال ربع قرن تضاعف عدد الأسر أحادية الوالدية، وفي بعض الدول 1 من كل 5 أسر هي عائلات أحادية الوالدية، وهذه النسبة سترتفع أكثر خلال السنوات المقبلة بالنظر لمعدلات الطلاق المرتفعة عالميا) .

إن الوظيفة الأولى للمدرسة كانت ولا تزال هي إلغاء دور الأسرة ورقابتها على أبنائها واستبدالها برقابة الدولة. صحيح أن المدرسة لم تتجاهل دور الأسرة، ولكنها حولته إلى دور هامشي عندما اعتبرتها مجرد شريك لمشروع المدرسة إلى جانب الشركاء الآخرين. هكذا أصبح الطفل

موضوعا لمشروع المدرسة (أي مشروع الدولة) لا لمشروع الأسرة، هذا إن كان للأسرة مشروع .

النتيجة كانت كارثية، وقد عبّر عنها طوماس بيرنهارد في مقطع من رواية (السادة الأوائل)، يقول: "**عندما دخلت إلى المدرسة، فأنا في حقيقة الأمر دخلت إلى الدولة. وبما أن الدولة تُدَمِّر كل الكائنات، فمعنى هذا أنني دخلت إلى المؤسسة المتخصصة في تدمير الكائنات. لقد أجبرتني الدولة على الدخول إليها، مثلما أجبرت كل الآخرين، وحَوَّلتني، مثلما حَوَّلت كل الآخرين، إلى كائن خاضع لها. لقد صنعت مني، ومن كل الآخرين، إنساناً منضبطاً ومُرَوَّضاً ومُشَوَّهاً ومُكْتئباً وحاملاً لشهادة**". وهكذا لم نعد نرى من حولنا إلا عبيداً للدولة، يقضون حياتهم بالكامل في خدمة الدولة، أي في خدمة كل ما هو مضاد للفطرة والطبيعة. ويحتاج هؤلاء العبيد للتحرر من عبوديتهم إلى فهم معنى "التعليم الأساسي"، ولماذا هو إجباري؟ هو "**أساسي**" لأن المسار الكامل لحياة العبودية ينبني عليه، وهو "**إجباري**" لضمان الحد الأدنى من السنوات الضرورية لترويض الجسد على هذه العبودية الجديدة .

كم كان أفلاطون ذكيا عندما اقترح في جمهوريته الفاضلة أن تقوم الدولة بنزع الأطفال من أسرهم وتتكفل بتربيتهم وفق توزيع مسبق للأدوار الاجتماعية، وكم كانت الدولة أكثر ذكاء ومكرا عندما عززت حظوظ نجاح هذا التنظير الأفلاطوني المثالي لإعادة الانتاج الاجتماعي باختراع واقعي اسمه المدرسة وإيديولوجية ماكرة اسمها "حقوق الطفل"، وكم كانت

"**الأسر الطيبة**" غبية وجبانة عندما سلمت أبناءها للدولة لتقوم بإعدادهم في مدارسها ليكونوا خداماً أوفياء عند الدولة مستقبلا، وكم كانت "**الأسر الحازمة**" ذكية وحازمة عندما استثمرت في مدرسة الدولة بذكاء دون أن تتخلى عن رقابتها لأبنائها لصالح رقابة الدولة وعن مشروعها مع أبنائها لصالح مشروع الدولة. **إن ما تمنحه المدرسة على علاته مهم لمن يتقن استثماره بذكاء، لكنه خطير على من لا يفهم اللعبة.**

نهاية الخصوصية

من القيم التي انجرفت أيضاً وستنجرف أكثر مع تيار «عصر النهايات» قيمة الخصوصية.. **انمحت الحدود الفاصلة بين الفضاء العام والفضاء الخاص**، وعشنا لنرى تبخر الفضاء الخاص وتوزع ما بقي منه ما بين "**خصوصية شقية**" وظيفتها تعزيز الرقابة الذاتية وممارسة النقد الذاتي لمنع الذات من القيام بمشاريع غير متلائمة مع القواعد التي يضعها صانعو الألعاب، و"**خصوصية مستباحة**" تم اجتياحها من طرف جهات تحركها حوافز اقتصادية أو سياسية .

عندما نقوم اليوم بإرسال رسالة إلى قريب أو صديق أو زميل في العمل فإن نفس الرسالة تصل منها ما يشبه "نسخة كربونية خفية BBC " إلى مجموعة من المعلنين والمتسللين وشركات التكنولوجيا الكبرى، لكن بغير إذن منا ولا علم .

لم تعد هذه الحقيقة مجهولة من أحد ولا مُزعجة لأحد، والقلة القليلة من المنزعجين سيوفر لهم صانعو اللعبة والمتحكمون فيها بدائل "آمنة" تشتغل وفق توقعاتهم لحين تلاشي حس اليقظة لديهم أو انقراضهم! **الصبر أهم مُكوّن في أي لعبة، وصناعة الأمل لا تقل أهمية عن صناعة الخوف لمن يسعى إلى الرقابة الشمولية والتحكم المطلق**، ويجب ألا ننسى أن كل الممارسات الجديدة المزعجة كانت دائماً وعبر التاريخ تبدأ شاذة ومرفوضة وتنتهي طبيعية ومقبولة، **وكل ما يحتاج إليه**

صانعو ألعاب التحكم هو القليل من الصبر من طرفهم والكثير من الغباء والاندفاع من طرف القطيع.

إنه تحول آخر من تحولات "عصر النهايات".. كأن الفعل التواصلي الذي كان يتم في فضائين متمايزين عام وخاص ووفق قواعد مختلفة لكل منهما، أصبح يتم في فضاء واحد يمكن أن نسميه بالفضاء "**العاص**" الشبيه بفضاء أفلام "ألعاب الجوع" حيث تنمحي كلياً الحدود الفاصلة بين الفضائين العام والخاص، وحيث يتابع جميع سكان الفضاء العام الجديد المبني من الواقع المعزز الحياة الخاصة للاعبين غير مُعززين ولا مُكرمين، وحيث تُغَذي قصص الحب المُثيرة والأحداث المشبعة بالشحنات العاطفية القوية شغف المتابعة "المشروعة" للحياة الخاصة والحميمية للاّعبين التي أصبحت مجرد سباقات مجنونة من أجل البقاء في فضاء عام افتراضي أو في واقع معزز!

الخصوصية إذن في طريقها أيضاً إلى محطتها النهائية، ومظاهر هذه النهاية متعددة:

- الإحصاءات اليوم تقول أن عدداً قليلاً جداً من شركات التقنية العالمية لديها كميات ضخمة جداً من البيانات حول الجميع.. معادلة مُرعبة وغير متوازنة.

- كل حكومات العالم تضغط لإنهاء التشفير أي لإنهاء الخصوصية، أو تضغط للحصول على الخوارزميات السرية لفك شفرات المعلومات الخاصة للأفراد.

- تحوّلت حياتنا الخاصة بشكل كبير إلى الإنترنت، وتوسع هذا التحول وزادت وتيرته مع الأزمة العالمية الحالية، ولأن الإنترنت فضاء عام أصبحت حياتنا الخاصة سيرة شعبية متداولة ومتاحة للجميع.

- كان التواصل قديماً هو **الاشتراك في المعنى**، أما اليوم فهو **الاشتراك في القناة**؛ قناة التواصل أصبحت أكثر تطوراً وأهمية من الرسالة نفسها. وبتحول التواصل من مركزية الرسالة إلى مركزية القناة فقدت الخصوصية قيمتها، لأن الخصوصية صفة في الرسالة وصاحبِها لا في القناة.

- بعض الشركات والمواقع تعرض بكل وقاحة اقتناء المعلومات الشخصية للمستخدم واستخدامها لأهداف تسويقية مقابل خدمة مجانية، وتجد رغم ذلك الكثير ممن يبيع معلوماته الشخصية بكل محبة.

- أصبح من الرائج كثيراً التضحية بالخصوصية من أجل امتلاك قناة مجانية للتواصل.

- شركات التقنية العالمية مهتمة بشكل كبير بالحياة الشخصية للأفراد، وتجمع بعلمهم أو بغير علمهم معلومات كثيرة عن حياتهم الشخصية .

- تقوم شركات التقنية العالمية من حين لآخر بتحديث شروط الخدمة وسياسة الخصوصية لإعلام المستخدمين بشروط جديدة لإدارة بياناتهم وتخزينها واستخدامها، وهذه الشروط الجديدة غالبا تستبيح خصوصيات المستخدمين .

- بعض شركات التقنية العالمية لا تخضع للرقابة المستقلة، إذ تقوم بالتسلل إلى معلومات المستخدمين بكل جرأة وحرية ودون أي رقابة .

- جزء مهم من النمو الاقتصادي اليوم مصدره تكنولوجيا المعلومات، التي هي في جزء كبير منها تكنولوجيات عسكرية ومخابراتية في الأصل.. التحفيز الاقتصادي والتحفيز السياسي يتبادلان المنافع والأدوار !

- معظم الناس للأسف لا يهتمون بالخصوصية اعتقاداً منهم أن البيانات الشخصية تُجمع في الغالب للإعلان فقط لا لأهداف سيئة .

- الغالبية العظمى من الأفراد يوافقون على شروط وسياسة الخصوصية على الإنترنت دون قراءتها.

- معظم الأفراد أصبحوا متواطئين مع شركات التقنية العالمية بأنفسهم على أنفسهم حين ينقلون معطياتهم الشخصية الخاصة إلى الشبكات الاجتماعية العامة في موجة أشبه ما تكون بمجاراة ومواكبة الموضة، ولا ينتبهون لهذه الأخطاء القاتلة إلا عندما يجدون أنفسهم في موقع المساءلة والمحاسبة.

- لا يملك الأفراد والمؤسسات الحق ولا القدرة على إزالة معلوماتهم الشخصية من الإنترنت لأن حذف المحتوى من المواقع أو الصفحات الاجتماعية لا يحذفه من محركات البحث، ولأن عملية استرجاع أي محتوى محذوف ممكنة دائما من الناحية التقنية.

- ستتراجع الخصوصية كقيمة مع الأجيال الجديدة الصاعدة؛ فجيل z (جيل ما بعد سنة 2000) حاضرون بقوة في الشبكات الاجتماعية. والأنترنت والتكنولوجيا والهواتف الذكية جزء أساسي في حياتهم. ومستعدون للتنازل عن خصوصياتهم عند الضرورة من أجل ممارسة قدراتهم التأثيرية من خلال الشبكات الاجتماعية

والأنترنت، كما يتميزون بقوة التواصل والتعاون والتقاسم دون اعتبار للحدود الفاصلة بين قواعد الفضاء العام وقواعد الفضاء الخاص، ولا يهولون من الخصوصية كما هو الشأن بالنسبة لجيل x (جيل ما بين 1960 و 1980) وجيل y (جيل ما بين 1980 و 2000).

أصبح من الطبيعي جداً، أن نجلس في غرفة مغلقة جداً، لنجري محادثة خاصة جداً، بينما يجلس بكل محبة إلى جوارنا مباشرة شخص غريب جداً، يدوّن كل ما قلناه ويرسله إلى الحكومة وإلى شركات الدعاية والإعلان وشركات التكنولوجيا الكبرى! جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالخصوصية!

نهاية السعادة

لا وجود للسعادة بالمعنى الفلسفي المطلق كحالة من الرضا التام والمستدام بما تناله الذات، فالسعادة مجرد حالات شعورية قليلة نقتنصها اقتناصاً في لحظات عابرة، ومع ذلك تعمل الرأسمالية العالمية المتوحشة على افتراس هذه الحالات المحدودة واللحظات العابرة أيضا !

هل يمكن للسعادة أن تستمر والحال أن أسبابها في طريقها إلى الانقراض؟

بعيدا عن التأملات الفلسفية المجردة والتعريفات الفلسفية المطلقة للسعادة، دعونا ننطلق من نتائج العلم من خلال الكثير من الدراسات العالمية حول السعادة لنقف على أسبابها في المعيش الواقعي للإنسان.

تتلخص أهم أسباب السعادة، حسب الدراسات العلمية، في العوامل الأساسية الآتية :

- العلاقات الاجتماعية
- الرضا عن العمل
- الرضا عن الدخل
- مستوى التعليم والثقافة

- وقت الفراغ

هذه الأسباب والعوامل فماذا تبقى منها في ظل التحولات والانهيارات والنهايات؟ من الواضح أن السعادة على قلتها في طريقها أيضاً نحو النهاية .

1. ماذا تبقى من العلاقات الاجتماعية؟

أبرزت دراسة أمريكية تأثير العلاقات الاجتماعية على سعادة الإنسان، وبشكل خاص الحياة الأسرية والزواج والصداقة والجماعة المحلية والانتماء إلى التنظيمات الاجتماعية. وأبرزت دراسة بريطانية أن السعادة التي يكون مصدرها العلاقات لها ثلاثة أبعاد: الدعم المادي والدعم العاطفي والمشاركة في الاهتمام. ترى ماذا بقي من هذه العلاقات الاجتماعية ومن أبعادها في عصر النهايات؟ وإلى أي حد لازالت هذه العلاقات تساهم في شعور الفرد بالسعادة؟

في عصر النهايات طالت الانهيارات المتعددة العلاقات الاجتماعية بدورها التي ازدادت تفككاً بسبب الإجهاد البدني والارهاق الذهني والاحتراق النفسي :

- على مستوى العلاقات الأسرية تراجعت الاستجابات اللفظية الايجابية والسلوك المستثير للسعادة كالقبل والهدايا والمساعدة العملية وقلّ الوقت الذي يقضيه الزوجان معا، وزادت في المقابل الاستجابات

اللفظية السلبية والنقد للطرف الآخر وفشل العلاقة الجنسية وضعف الاتفاق على المسائل المادية والعجز المتزايد عن تفهم وجهة نظر الآخر .

- وزادت الظروف المادية الضاغطة بسبب محدودية الدخل وغلاء المعيشة والتضخم وانهيار القدرة الشرائية وسحق الطبقة الشعبية تماماً وإنهاك الطبقة المتوسطة وإلباسها أشكالاً جديدة للفقر، من تراجع الدعم المادي والدعم العاطفي والمشاركة في الاهتمام في العلاقات الأسرية .

- على مستوى علاقات العمل قلّت فرص التفاعل الاجتماعي أثناء العمل وجو المرح المحيط بالعمل وقلّ أيضا التقدير والتمكين والمشاركة في اتخاذ القرار من جانب المشرفين، كما ساهم غياب أو ضعف الزيادة في العائد المادي من العمل في تراجع دور العمل في تحقيق السعادة .

2. ماذا تبقى من الرضا عن العمل؟

المصدر الأول للرضا عن العمل هو الرضا الذاتي المرتبط بمشاعر الانجاز وتحقيق الاهداف والاعتراف والنجاح في العمل، لكن الطبيعة الجديدة للعمل في عصر الرأسمالية المعرفية المفترسة للحقوق والواجبات أفقدت العمل الكثير من ميزاته كالاستقرار (أي سعادة وأي رضا مع عمل بعقد مؤقت؟) والأجر (أي سعادة وأي رضا مع عمل بأجر لا يحقق الكفاية والكرامة والعدل ولا يواكب غلاء المعيشة ومستوى التضخم؟) .

3. ماذا تبقى من وقت الفراغ؟

أنشطة وقت الفراغ هي كل شيء يفعله الإنسان أثناء الساعات التي لا يكون فيها نائما أو يعمل أو يأكل أو يرعى نفسه أو أسرته، وكيفية قضاء الناس وقت فراغهم تعطينا مؤشرات هامة عما يريده الناس وما الذي يجعلهم سعداء.

في ظل استنزاف العمل وملحقاته كالتدريب والتعلم المستمر لمواكبة المعارف والمهارات المهنية المستجدة لجزء كبير من وقتنا، وفي ظل استغراق ما تبقى من الوقت في الأشكال الجديدة لرعاية الأبناء المرتبطة بالمدرسة وواجباتها والدعم بأشكاله المختلفة والنوادي والأنشطة، ترى ماذا يتبقى للآباء والأبناء على حد سواء من وقت للفراغ؟ كم أصبح متاحا لنا من الوقت للأسرة والتدين والأصدقاء والعمل التطوعي والقراءة والتواجد مع الأقارب واللعب والعمل المنزلي والاسترخاء والسفر والاجازات وزيارة الحدائق العامة والإنصات الى الموسيقى ومشاهدة الأفلام وممارسة الرياضة والانخراط في الأندية والجمعيات وممارسة السياسة؟

4. ماذا تبقى من الرضا عن الدخل؟

أكدت الكثير من الدراسات أن المال لا يجعل الناس سعداء، أو هو ذو تأثير محدود، لكن المال يمكنه أن يزيد من الشعور بالسعادة بسبب ما يوفره من إمكانات.

في دراسة أمريكية وجد أن الدخل يرتبط بالمشاعر الايجابية، وفي دراسة بريطانية ثبت أن المقارنة وليس الدخل هو مصدر الرضا عن الدخل.

سواء كان مصدر السعادة هو الدخل أو مقارنة الدخل فإن السعادة المرتبطة بالدخل في تراجع مهول بسبب تزايد نسب البطالة (انعدام الدخل)، وتراجع مستويات الأجور والرواتب، وتعاظم الفروقات في الدخل.

5. ماذا تبقى من التعليم والثقافة؟

أثبتت الكثير من الدراسات أيضا أن التعليم له تأثير أقوى على السعادة وأن الأعلى تعليما يشعرون بسعادة أكبر، لكن ماذا تبقى من التعليم والثقافة في زمن تَسَوّق فيه كل شيء حتى المعرفة والعلم والثقافة، وانمحت الحدود الفاصلة بين المعرفة والتقنية، وماذا تبقى من السعادة المرتبطة بالتعليم في زمن تخلف التعليم وفشله .

لم يتبق إذن من العلاقات الاجتماعية والرضا عن العمل والرضا عن الدخل ومستوى التعليم والثقافة ووقت الفراغ إلا القليل، والسعادة التي تتغذى من هذه المصادر في طريقها إلى الاختفاء أيضا.



الفصل الخامس

نهايات في المجال الاقتصادي



نهاية السوق

عبر تاريخ الإنسان تعاقبت ثلاث موجات حضارية، حضارة الاقتصاد الزراعي وحضارة الاقتصاد الصناعي وحضارة اقتصاد المعرفة، وكان لكل موجة حضارية تأثيراتها الخاصة على المؤسسات الاجتماعية الأساسية: الأسرة والمدرسة والسوق.

على مستوى السوق، أنتجت موجة الاقتصاد الزراعي البازار والباعة المتجولين، وأنتجت موجة الاقتصاد الصناعي المؤسسات التجارية، ترى كيف سيكون شكل السوق مع اقتصاد المعرفة!؟

لاستشراف مستقبل السوق علينا أولا أن نحلل ونفهم التحولات العالمية الجارية حاليا في السوق.

واقع الأسواق والمؤسسات التجارية الآن عنوانه الأزمة.. وليست ككل الأزمات العابرة في سياق الدورة الاقتصادية: الانتعاش ثم الذروة ثم الركود ثم الكساد ثم الانتعاش من جديد وهكذا دواليك. **الأزمة الحالية عنوانها خارج الدورة الاقتصادية! إنه الإنفجار العظيم.. تفجير رأسمالي عالمي متوحش للأسواق من الداخل.**

وحوش رأسمالية مُعَوْلَمَة على شاكلة أمازون تخرج، كما يخرج الحي من الميت، من جثث الأسواق والمؤسسات التجارية المنهكة بالأزمة العالمية، ومؤشرات هذا الخروج كثيرة منها مثلا معدلات نمو الأسواق والمنصات الإلكترونية العالمية وشبكات التوزيع الضخم وهو نمو مُرعب يتجاوز في

بعض الدول 500٪، في مقابل الموجة الكبيرة لإفلاس الشركات في نهاية 2020 وبداية 2021 حيث تقدر دراسة لعملاق التأمين أليانس أن عدد عمليات الإفلاس ستزداد مقارنة مع معدلات الإفلاس في 2019 بنسبة 57٪ في أمريكا، و45% في البرازيل، و43% في بريطانيا، و42% في هولندا، و41% في إسبانيا، و40% في الصين.

تستطيع شركة رأسمالية عالمية واحدة بامتلاكها فقط لتطبيق على الهاتف أو منصة إلكترونية أن تفجر مهنة أو قطاع بأكمله من الداخل وتحوله إلى قطاع محتكر من طرفها على المدى البعيد، والأمثلة كثيرة:

- شركة أوبر فجرت قطاع النقل وأضرت بمصالح الشركات الوطنية العاملة في هذا القطاع وبسيارات الأجرة في الكثير من بلدان العالم.

- شركة أمازون المعولمة وأذرعها التجارية المتخصصة بإمكاناتها ووسائلها التي تكاد تكون لا محدودة فجرت قطاع التجارة الإلكترونية من الداخل وتسببت في إفلاس الكثير من المنافسين الجدد والقدامى.. ومع التوسع المطرد لهذه الشركة من قطاع الكتب إلى قطاع الإلكترونيات إلى قطاع اللوجستيك إلى قطاع المواد الغذائية... **أصبح السوق هو أمازون وأمازون هي السوق.**

إن أول وأكبر الضحايا لهذا التحول العالمي نحو الرقمنة والتغيير في نماذج الأعمال هم الأسواق والمؤسسات التجارية الصغيرة والمتوسطة وإلى حد ما الكبيرة أيضاً.

أما أسباب هذه النهاية فمتعددة .

السبب الرئيس هو قواعد اللعبة غير العادلة وعدم تكافؤ الفرص في الوصول إلى التقنية المتطورة ومصادر التمويل وشبكات التسويق مع المؤسسات التجارية الرأسمالية العالمية وعلى رأسها الوحوش التجارية العالمية (أمازون وغوغل وميكروسوفت وآبل...) .

ومع هذا السبب وبعده تأتي أسباب أخرى، بعضها ذاتي والبعض الآخر موضوعي :

- غياب الوعي بالتحول الرقمي الجاري عالميا وبرهاناته .

- غياب استراتيجية رقمية واضحة .

- غياب الإمكانات المالية لإنجاز التحول الرقمي المطلوب .

- إنجاز تحول رقمي فاشل لأسباب ثقافية غالبا .

- الاستمرار في الاشتغال بنماذج الأعمال التقليدية والعجز عن التحول إلى نماذج أعمال جديدة ومبتكرة .

- غياب سياسات ورُؤَى ومشاريع واضحة وفعالة للدولة لحماية المؤسسات التجارية الوطنية من تغوّل المؤسسات التجارية العالمية .

من الواضح أن الأسواق والمؤسسات التجارية الصغيرة والمتوسطة والتي تشتغل بنماذج أعمال تقليدية في طريقها نحو محطتها النهائية ككل نهايات الانفجار العظيم! وهي اليوم وغدا بين نارين: نار شبكات التوزيع الضخم العامة والمتخصصة التي تلتهم الأخضر واليابس في العالم الواقعي (وول مارت، كارفور، تيسكو، كروجر...)، ونار الشركات والأسواق والمنصات الإلكترونية العالمية التي تلتهم الأخضر واليابس في العالم الافتراضي (أمازون، غوغل، ميكروسوفت، آبل...). إنه السوق بمفهومه الشمولي للافتراس وبقواعده المتوحشة للّعب: **يضع المهيمن القواعد ويأخذ كل شيء إذا فاز.**

نهاية النقود

هل النقد محكوم عليه بالاختفاء؟

الجواب: نعم، فمن المؤكد أن القرن الجاري لن ينتهي قبل أن تغدو النقود الورقية جزءاً من التاريخ .

دعونا أولا نستعرض مظاهر هذه النهاية المرتقبة :

- الانتشار المتزايد لبطاقات الائتمان، وتحويل الأموال عبر الكمبيوتر والهاتف .
- تزايد المدفوعات عبر الإنترنت .
- تمديد الدفع بدون تلامس .
- مدفوعات الهواتف الذكية أصبحت ذات أهمية متزايدة .
- تراجع أعداد الصرافات الآلية وأجهزة السحب النقدي .
- في الكثير من دول العالم. خاصة المتقدم، أصبحت آليات الدفع الإلكتروني، كبطاقة السحب الآلي أو البطاقة الائتمانية، هي الوسيلة الأكثر استخداما، وأصبح من النادر الدفع نقداً .

النقد إذن محكوم عليه بالاختفاء والأسباب متعددة :

- التطور التكنولوجي وثورة الاتصالات هما أهم سببين لتخزين الأرصدة بطريقة إلكترونية، بحيث تم التقليص من حمل الأوراق النقدية بشكل كبير جداً الأمر الذي يُمهد لاختفائها تماما .

- رغبة الدول وحاجتها لتتبع جميع المدفوعات ومحاربة الاقتصاد غير المهيكل والتهرب الضريبي، وهنا يُمثل الدفع الالكتروني طريقة فعّالة لتحقيق هذا الهدف، فقد شهد حجم الإيرادات الضريبية انضباطا ملحوظا بنسبة تصل إلى 63 في المائة، بسبب استخدام المدفوعات الإلكترونية في عملية السداد في 22 دولة في أوروبا وأمريكا الشمالية وكل من اليابان وكوريا الجنوبية .

- اعتبار السيولة النقدية عامل تلوث، وقد تعزّز هذا الاعتقاد والتوجه مع الوباء العالمي كوفيد 19، ومن تم تفضيل الدفع بدون نقود .

- تزايد التجارة الإلكترونية عبر شبكة الإنترنت يُحتّم زيادة استخدام النقود الإلكترونية، لأن مواقع الإنترنت لا تقبل أوراقا نقدية أو عملات معدنية .

نهاية الوظيفة العمومية

ليس من السهل تناول مواضيع معقدة وحساسة، كالأسرة والمدرسة والجامعة والتخصص والشهادة والوظيفة والتقاعد والسوق والسياسة والديمقراطية والمصلحة العامة والقيادة، دون صعوبات وسوء فهم. ومع ذلك قررنا ركوب المغامرة؛ لأن مستقبل مجتمعاتنا بحاجة إلى هذا النقاش لمواكبة التحولات الجذرية والشاملة الجارية .

ولفهم هذه التحولات الجارية التي بدأت تطال القيم والمؤسسات التي وضعنا فيها ثقتنا في الماضي علينا أولا أن نتحرر من الارتباط الفكري والعاطفي والمصلحي بها، وأن نتحرر أيضا من النظرة التجزيئية واللاسياقية مع الأحداث؛ لا يمكن فهم الأحداث القطاعية والمحلية بدون ربطها ببعضها البعض وبالصورة الكلية وبالسياق الجديد لتوجهات الرأسمالية العالمية في القرن الواحد والعشرين .

الرأسمالية العالمية في صيغتها الصناعية سابقا اخترعت الأسرة النووية والمدرسة والوظيفة والتقاعد والمؤسسات التجارية والديمقراطية لتلبية حاجاتها وخدمة مصالحها، وهي اليوم في صيغتها الجديدة المعرفية تعمل على إلغائهم أو إعادة اختراعهم في أشكال جديدة تستجيب لحاجات مستجدة عندها وخدمة مصالحها دائما .

على الذين يواجهون سياسات حكومية محلية أو يعيشون مُطمئنين في دفء مكتسباتهم التي منحتهم هذه المؤسسات سابقا أن

يفهموا أن ما تقوم به رأسمالية القرن الواحد والعشرين الآن ليس تغييرا للعبة ولقواعدها وإنما تفجير لها من الداخل .

دعونا بعد هذه المقدمة نرى هذا التفجير من الداخل الذي تقوم به رأسمالية القرن الواحد والعشرين للوظيفة العمومية.. دعونا نُرَكِّب الصورة النهائية الكلية من خلال وضع القطع الصغيرة بشكل سليم بجانب بعضها. هاكم بعض القطع :

1. أغلب حكومات العالم وضعت في السنوات الأخيرة مشاريع استراتيجية تؤسس لنماذج جديدة للوظيفة العمومية تُحدث قطيعة مع الوظيفة العمومية كما نعرفها .

2. من هذه المشاريع تقليص خطط التوظيفات الجديدة إلى حدها الأدنى أو إلغاؤها في بعض الحالات كما حدث مؤخرا في قوانين المالية لسنة 2021 لبعض الدول التي نصت على تقليص أو إلغاء مناصب الشغل في الوظيفة العمومية بمبرر تداعيات كوفيد 19 .

3. عدم استبدال الموظفين المتقاعدين بموظفين جدد: مثلا قانون ساركوزي بفرنسا: "عدم استبدال موظف واحد من كل موظفين أحيلا على التقاعد".

4. التوجه نحو إنهاء مبدأ التوظيف مدى الحياة واعتماد التوظيف بالتعاقد. في بعض الدول تجاوز عدد الموظفين المتعاقدين مع

الحكومة المليون منذ سنوات. من سيغامر ببناء أسرة بعقد لمدة سنتين مثلا!؟

5. تقليص أنظمة الترقيات إلى حدها الأدنى. من سيقلص في المقابل معدلات الزيادة المطردة في تكاليف المعيشة!؟

6. التوجه العالمي المتزايد لإدارة الموارد البشرية بالجدارات Competence في أفق التوظيف بالجدارات بدل التوظيف بالشهادات، وتوقيع الرئيس الامريكي ترامب في يونيو 2020 أمرًا تنفيذياً يأمر فيه الحكومة الفدرالية بالتوظيف بناء على القدرات والمهارات والجدارات بدلا عن الشهادات الأكاديمية مؤشر واضح على هذا التوجه .

7. التوجه المتزايد نحو الإدارة الاستراتيجية والتوقعية للمهن والكفاءات لتقليص الصدمات الاجتماعية وتحقيق التحول نحو النموذج الجديد للوظيفة العمومية، الذي ستكون تكلفته الاجتماعية باهظة، بأقل المعارضات والمواجهات .

8. التوجه العالمي المتزايد نحو تبسيط الإجراءات ورقمنة الخدمات الحكومية، وهذا سيترتب عنه تقليص كبير جدا في احتياجات الإدارات الحكومية من الكادر البشري مما سيؤدي إلى تزايد خطط الاستغناء وتراجع خطط التوظيف .

9. في الماضي كانت الدولة تستقطب الشباب وتؤهلهم لإدماجهم في الوظيفة لأنها كانت بحاجة إلى جيش من الموظفين لسد احتياجاتها في

إدارة المرفق العمومي ولتقوية الدولة، أما اليوم فالدولة القُطرية التي صارت مغلوبة على أمرها أصبحت، فيما يبدو أنه توجه عام للرأسمالية العالمية، تمنح القروض للشباب وتؤهلهم من أجل "تحريرهم" من عبودية الوظيفة العمومية وتوريطهم في عبودية القروض.

10. ومن المصادفات العجيبة أن مسميات بعض القوانين الجديدة للوظيفة العمومية مثيرة للسخرية: قانون التحولات المهنية الآمنة في حالة إعادة الهيكلة! قانون الموظفين المحرومين من الوظيفة !

لقد انتقدنا لسنوات الوظيفة وقلنا عنها إنها، مع المدرسة، أسوأ اختراعين في تاريخ البشرية. كنا ننتقد ونحن نتوقع أنه سيأتي يوم ستُغَنّي فيه فئات واسعة تَحِنّ إلى الوظيفة وتطلبها ولا تجدها: "جادك الغيث إذا الغيث همى، يا زمان الوصل بالوظيفة العمومية".

قريبا ستصبح عبودية الوظيفة العمومية ذكرى من الماضي وسيذكرها التاريخ بصفة عبودية القرن العشرين، **أما عبودية القرن الواحد والعشرين فستكون عبودية البطالة العالمية المؤدى عنها ب "راتب العجز العالمي"** الذي يحمي من التشرد ويكفي للأكل والنوم وإعادة إنتاج منظومة العبودية العالمية (بعض الدراسات الاستشرافية تقول أن نسبة البطالة سنة 2070 ستكون 80%)

نهاية أنظمة التقاعد

من المؤسسات التي ستنتمي أيضاً إلى «عصر النهايات» أنظمة التقاعد.

في السنوات الأخيرة تعددت إصلاحات أنظمة التقاعد وتنوعت، لكن يبدو بوضوح أن الهدف واحد: تقليص امتيازات المستفيدين من صناديق التقاعد على المدى القصير والمتوسط في أفق إلغائها بطريقة ماكرة بمنطق الأمر الواقع على المدى البعيد. والبديل المنتظر هو صناديق التقاعد الخاصة.. تريد تقاعداً خذ لك بوليصة تأمين خاص! لاحظوا مرة أخرى أن الرأسمالية العالمية المتوحشة المفترسة ترى في كل شيء فرصا استثمارية، ومع ذلك لازال البعض يُصِر أننا نرسم لوحة تحليلية تشاؤمية مبنية على الخوف وأننا أعطينا الرأسمالية العالمية أكثر من حجمها.. **الطيبون يحسنون الظن دائما ومتفائلون، أما الحزم فقاعدته سوء الظن خاصة مع من لهم سوابق في التوحش والافتراس كالرأسمالية العالمية.**

إن **الانفجار العظيم**، من الداخل طبعا، الذي سيقع في أنظمة التقاعد العالمية بدأت تُعلن عن قدومه علامات كثيرة، بعضها قوية وبعضها ضعيفة، وليس من قبيل المصادفة أن أزمة صناديق التقاعد عبر العالم تكاد تكون بنفس السمات، ومشاريع إصلاح أنظمة التقاعد عبر العالم تبدو متشابهة أيضا.

في التحليل الأكاديمي المهني البارد تبدو أزمة صناديق التقاعد موضوعية، فقد ساهمت عوامل موضوعية متعددة في تأزيم وضعيتها، وهي عوامل ديمغرافية واقتصادية بالأساس. ويمكن للتحليل البارد أن يضيف بعض الحماس المناضل ويدين أيضا سوء الإدارة والتدبير في بعض الحالات .

أحد العوامل الرئيسية هي تجاوز عدد المستفيدين لعدد المساهمين مما أدى إلى عجز صناديق التقاعد. في بعض الدول كفرنسا سيتضاعف هذا العجز خمس مرات في أفق سنة 2025 .

بالتحليل الأكاديمي المهني البارد أيضا يمكن أن نتساءل: **كيف يمكن حل هذه المشكلة التي يبدو أن الرأسمالية العالمية المتوحشة المفترسة لا يد لها فيها أو على الأقل لا تطمع في استغلالها؟**

نظريا وواقعيا توجد حلول لهذه الأزمة، من هذه الحلول: زيادة مساهمات المنخرطين بشكل مباشر، أو زيادة مساهمات المنخرطين بشكل غير مباشر من خلال استحداث ضرائب خاصة، أو تقليص رواتب المتقاعدين، أو المزيد من الاستثمارات الناجحة لأموال الصناديق، أو تسييل الأصول، أو زيادة مساهمة الدولة .

تم اعتماد بعض هذه الحلول في الكثير من الدول وبقيت الأزمة قائمة، بل تفاقمت في الكثير من الحالات، وعندما تفشل الوصفة الطبية في علاج المرض ننتقل إلى العملية الجراحية. وتصبح العملية الجراحية

مُغرية لا ضرورية فقط عندما ترى فيها الرأسمالية العالمية المفترسة فرصاً للاستثمار !

دعونا الآن نجمع ونُرَكِّب بعض القطع لفهم الصورة الكلية النهائية لهذه العملية الجراحية ولشكل ومضمون تقاعد المستقبل :

1. من كل الحلول الممكنة لأزمة صناديق التقاعد يبدو أن رفع سن التقاعد هو الحل المُفضل والمغري. قبل شهر وفي إطار عملي كمستشار للاستراتيجية قابلت أون لاين مدير التخطيط والاستراتيجية بأحد صناديق التقاعد الخليجية وسألته عن أفضل الحلول لأزمة صناديق التقاعد فأجاب بأن رفع سن التقاعد يحقق استدامة أكثر. إن سياسة الرفع التدريجي لسن التقاعد هو توجه عالمي، فقد تم رفع سن التقاعد من 60 إلى 62 إلى 64 إلى 65 إلى 70... ففي بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية مثلا، يبلغ معدل سن التقاعد عند الرجال 64.3 سنة، مقابل 63.7 سنة عند النساء. هذا متوسط عام أي أن بعض دول المنظمة الوضع فيها أسوأ مثل أستراليا حيث يبلغ معدل سنّ التقاعد حاليا 65.5 سنة، وسيتم بداية من عام 2023 رفعه شهرين سنويا حتى يصل إلى 67 سنة، مع التفكير في رفعه مجددا ليبلغ 70 سنة بحلول 2035. وفي الولايات المتحدة تم تحديد سن التقاعد منذ وقت طويل ليكون 65 سنة، ولكن بالنسبة للمولودين عام 1938 أو بعده، فإن سن التقاعد يصل إلى 67 سنة. الهدف من هذه السياسة واضح: الرفع التدريجي لسن التقاعد للوصول إلى متوسط العمر المتوقع (لسنا بعيدين

عن هذا الرقم ففي عام 2015 بلغ متوسّط عمر الإنسان المُتوقَّع العالمي 71.4 عاماً) بحيث يصبح عندك نسبة وفيات الموظفين عند سن التقاعد تساوي أو تقارب 100٪ وتنتهي المشكلة !

2. إلى جانب سياسة رفع سن التقاعد يلاحظ وجود توجه "تكميلي" لهذه السياسة نحو معاقبة الموظفين الذين يتقاعدون قبل السن الجديد للتقاعد بالاقتطاع، فيما سيستفيد أولئك الذين سيقومون بتأخير تقاعدهم من "مكافأة".. سياسة العصا والجزرة !

3. من إجراءات هذه العملية الجراحية أيضا التوجه بإلغاء الكثير من امتيازات المتقاعدين خاصة امتيازات صناديق التقاعد الخاصة، والتوجه في بعض الدول نحو إلغاء الصناديق الخاصة واعتماد نظام واحد وموحد هدفه الأساس التخلص من الامتيازات الخاصة الممنوحة للصناديق الخاصة. في فرنسا مثلا تم التوجه نحو إقامة "النظام الموحد" للتقاعد الذي سيحل مكان 42 نظاما قائما حاليا .

4. ومن امتيازات المتقاعدين التي سيطالها الإلغاء أيضا قاعدة احتساب راتب التقاعد بناء على رواتب أفضل السنوات (وهي غالبا قاعدة القطاع الخاص) أو الأشهر الأخيرة (وهي غالبا قاعدة القطاع الحكومي) واعتماد كامل المسار الوظيفي كقاعدة لحساب راتب التقاعد مع منح وزن أعلى لرواتب السنوات الأولى للمسار المهني.. النتيجة واضحة: انخفاض كبير في قيمة راتب التقاعد .

5. وأخيرا تشجيع حرية اختيار سن التقاعد ابتداء من سن متأخرة وتشجيع العمل بدون نهاية بحوافز ضعيفة في حدود زيادة 5٪ سنويا.

أما بعد، فإن الإطعام من جوع والأمن من خوف هما أساس النِّعَم والقاعدة المادية والنفسية لبقية النِّعَم. نقرأ عنهما في القرآن في سورة قريش كنعمتين عظيمتين: "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ"، كما نقرأ عنهما في العلم في قاعدة هرم الحاجات لماسلو كحاجتين أساسيتين: الحاجة إلى الإطعام من جوع، ثم الحاجة إلى الأمن من خوف، والماكرون يفهمون هذا جيداً، لذلك يستخدمون ألعاب الجوع وألعاب الخوف للتحكّم.

إن وظيفة ألعاب الجوع وألعاب الخوف هي الإبقاء على جمهور اللاعبين في حدود القاعدة المادية لهرم الحاجات الانسانية بعيداً عن المستويات العليا حيث الهوية الجماعية والكرامة الانسانية وتحقيق الذات الفردية والجماعية.

ألعاب الجوع الأساسية اليوم ثلاث: المدرسة والوظيفة والتقاعد، وهي تغطي في تعاقبها حياة الإنسان بالكامل، وتعززها ألعاب أخرى كالضرائب والتضخم. وحصيلة هذه الألعاب هندسة اجتماعية جديدة للطبقية من خمس طبقات: تحت عتبة الفقر، والفقر، والأشكال

الجديدة للفقر، والأغنياء في وضعية هشاشة، والذين يملكون كل شيء؛ هذه هي نتيجة الذكاء الماكر للرأسمالية العالمية المتوحشة !

نهاية الطاقة الأحفورية

يُعطينا التاريخ درساً مهما في اعتماد البشر على تدفقات الطاقة من أجل وجودهم الحضاري، وفي ارتباط أشكال المجتمعات والحضارات وتحولاتها بالطاقة؛ فعبر التاريخ كان نوع الطاقة هو الذي يعطي للمجتمع والحضارة شكلهما، ومع كل طاقة جديدة بداية تاريخ جديد، وكل الحضارات الكبرى والدول العظمى عبر التاريخ نشأت أو تطورت على إثر ظهور أشكال ومنظومات جديدة للطاقة؛ لقد أثر الانتقال التاريخي إلى الطاقة الأحفورية مثلا على كل شيء: الزراعة، والصناعة، والنقل، والأسلحة، والاتصالات، والاقتصاد، والتحضر، ونوعية الحياة، والسياسة، والبيئة. فالطاقة هي المصدر الأول لنوعية الحياة وشكل الحضارة والتقدم العلمي والتنمية الاقتصادية والقوة السياسية والعسكرية .

على مدار العشرة آلاف سنة الماضية كانت الابتكارات في تحويل الطاقة (حرارة أو ضوء أو حركة أو قوة دافعة) وراء كل تقدم حضاري أو ثقافي أو اقتصادي، وها نحن اليوم نقف عند حافة نهاية دورة تاريخية وبداية دورة تاريخية جديدة، فالطاقة الأحفورية التي تقود الحضارة اليوم يبدو أنها في طريقها إلى محطتها النهائية أيضاً .

مظاهر هذه النهاية متعددة :

- ابتعاد اقتصاديات العالم أكثر فأكثر عن الطاقة الأحفورية، والتوجه بشكل متزايد نحو مصادر الطاقة المتجددة على حساب الطاقة الأحفورية.

- تزايد القدرة التنافسية لمصادر الطاقة النظيفة.

- التوسع في إبرام الصفقات الخضراء الهادفة إلى صافي انبعاثات صفرية بحلول عام 2050.

- كشف تقرير جديد بشأن إنتاج الطاقة أن بلدان الاتحاد الأوروبي تمكنت خلال النصف الأول من هذا العام من إنتاج الكهرباء من المصادر البديلة بنسبة تجاوزت تلك التي أنتجت من الطاقة الأحفورية وذلك لأول مرة. وأفاد التقرير بأن 27 دولة من الاتحاد الأوروبي تمكنت من إنتاج ما تحتاجه من الكهرباء بنسبة 40% من الطاقة البديلة المتمثلة في طاقتي الرياح والشمس، لتتجاوز بذلك ما تم إنتاجه من الطاقة الأحفورية التي بلغت نسبتها 34 .%

- في جميع أنحاء العالم وفي كل القطاعات تجد المزيد من مبادرات الاستثمار في الطاقات النظيفة والمتجددة، والمزيد من الابتعاد عن الطاقة الأحفورية المُضرّة بالإنسان والمُلوثة للمكان.

أما أسباب نهاية عصر الطاقة الأحفورية فمتعددة، أهمها :

- التقدُّم التكنولوجي في مولّدات الرياح والخلايا الشمسية، وخاصة ما يتصل بتكنولوجيا تخزين الطاقة على أساس فعالية التكاليف .
- الاستثمارات الضخمة في الطاقة الشمسية وطاقة الرياح وزيادة اعتماد وسائل توليد الطاقة النظيفة .
- تعزيز الاستثمارات الخضراء والمشاريع الصديقة للبيئة .
- المعايير البيئية والتشريعات الهادفة إلى السيطرة على انبعاثات الكربون ووقف تدهور البيئة .
- الحرب ضد تغير المناخ العالمي وظاهرة الاحتباس الحراري والتوجه نحو اتفاقية باريس .
- توجه العديد من الدول نحو فرض المزيد من الحظر على دعم الوقود الأحفوري، في مقابل دعم وسائل الطاقة النظيفة .
- تحوُّل قطاع النقل نحو تصفير الكربون، إما بسبب شراء المستهلكين للسيارات الكهربائية، وإما لأن شركات مثل أمازون اعتمدت المركبات الكهربائية لتوصيل الطلبات .

- السياسات المناخية تُغيِّر من نمط استهلاك النفط وفق عامل الزمن، فتُعجِّل باستهلاك النفط الذي خُطِّط لإنتاجه خلال العقد المُقبل ليُستهلَك اليوم، وهذا سيُعَجّل بنهاية عصر النفط.

- النفط في جميع السيناريوهات سينهار في المستقبل؛ إذا ارتفعت أسعار النفط سيدفع ذلك الشركات والمستهلكين نحو شراء المركبات الكهربائية والابتعاد عن الوقود الأحفوري، وإذا انهارت أسعار النفط سيدفع ذلك الدول المنتجة إلى ضخ المزيد من النفط حتى يغرق العالم في بحر من النفط الرخيص.

يبدو أن نهاية عصر الطاقة الأحفورية (وعلى رأسها النفط) باتت وشيكة، وسيشعر جميع المعنيين بهذه النهاية، المنتجون والذين يعتمدون في تشغيل مواطنيهم وتنشيط السياحة لديهم على المنتجين، بألمها قريبا.. إنها النهاية التي ستجلب معها التغيير العميق مع الألم الكبير.

نهاية الاستهلاك المسؤول

لا زلنا نستعرض تداعيات هذا الإنفجار العظيم ونكتشف المزيد من النهايات. إليكم السموم الأربعة لأسلوب الحياة المعاصر والتي تؤشر على نهاية الاستهلاك المسؤول .

السم الأول: إدمان السرعة

السرعة تقتل ومع ذلك غامرنا باعتمادها كنمط لحياتنا، والإيقاع البطيء لحياة الحجر الصحي أظهر كم كانت سرعة حياتنا عالية جداً، فهل يكون هذا الوباء فرصة للتصالح مع الذات؟

قبل الوباء كان واضحاً أن الرأسمالية العالمية المفترسة ضغطت سرعة حياة البشر حتى توقف محرك الاستمتاع بحياة هادئة أو كاد .

مُتعب أن تعيش بإيقاع سريع للحياة، وعَبَث أن تعيش حياة قائمة على الركض المستمر دون محطات للتأمل وللتقييم والتزوّد، لكن منطق اشتغال الرأسمالية العالمية ومصالحها تقتضي هذا الإيقاع المجنون .

لكن هذا "الحكيم المتناهي في الصغر" الكائن المجهري الذي أربك العالم وأوقف حركته، يبدو أنه بدأ يقوم بضبط إيقاع الأساسيات من جديد. فهل يخرجنا من جنون الإيقاع السريع للحياة ليدخلنا في اتّزان الإيقاع البطيء للعزلة؟ لعلها فرصة للانتقال من سطحية الحرائق

اليومية إلى عمق الحقائق الأبدية.. المتعلقة بمعنى الحياة والموت والعمل والحب والزمن والمصير.

السم الثاني: الاستهلاك غير الصحي

أصبحنا نعيش على إيقاع نظام غدائي ناتج عن التحفيز التسويقي الرأسمالي، وهذا يكلفنا خسائر مالية وصحية.

نظامنا الغدائي يدور حول الأكلات المُعَلّبة والمشروبات الغازية: أكلات مُعَلّبة ليست سوى مواد مسرطنة، وعصائر مُعَلّبة ليست سوى القليل من الفواكه والكثير من السكر والنكهات الاصطناعية، ومشروبات غازية عبارة عن ماء وسُموم.. كل ذلك مع نمط حياة خامل.

التحرر من سموم الأكل غير الصحي سيمكننا من توفير الكثير من المال وربح سنوات إضافية في عمرنا الافتراضي.

السم الثالث: الاستهلاك بما يفوق الاحتياج

أصبح الاستهلاك دين العصر، تُنفق الرأسمالية على تحفيزه أضعاف ما تُنفق على المسؤولية الاجتماعية، بل وأضعاف ما تنفق على الإنتاج في حالات كثيرة، ونسبة الإنفاق على التسويق المرتفعة جداً تؤكد أن النزعة الاستهلاكية والإدمان المفرط على الكماليات فعلاً دين والتسويق نظامه التحفيزي.

التسويق وظيفته ليست هي تحفيز المبيعات وإنما تحفيز العملاء لشراء ما يفوق احتياجاتهم. ولتعزيز هذا التحفيز ليبلغ حدوده القصوى تعمل الرأسمالية على الربط بين منتجاتها والسعادة !

لعل في الأزمة العالمية الحالية وما نتج عنها من تراجع القدرة الشرائية فرصة لمراجعة هذا الإدمان؛ لأن الاقتصاد الأساسي اليوم ولحين تعافي الاقتصاد هو اقتصاد الأساسيات واقتصاد الرعاية المتبادلة والتعاون والتعاطف والرحمة، إنه حركة تصحيحية تذكرنا بأننا أفرطنا في الاستهلاك والأنانية .

السم الرابع: الاستهلاك الأناني

أحد أبعاد الاستهلاك المسؤول التضامن، لكن يبدو أن روح التضامن قد تلاشت أو كادت مع ظهور مجتمع الاستهلاك الأناني، وتفكيك الدولة الاجتماعية، وتعزيز العولمة الأنانية التي أسست للارتباط المتبادل بدون تضامن .

تكلفة هذا الاستهلاك الأناني باهظة على المستوى الاجتماعي (الحقد الطبقي وارتفاع معدلات العنف والطلاق والانتحار...)

متى نزيل هذه السموم ونعالج هذا الإدمان؟ هل يمكن لاستهلاكنا أن يصبح مسؤولا أم أن الدخول في نمط الاستهلاك غير المسؤول لا رجعة فيه؟ وهل يمكن للأزمة العالمية الحالية أن تعزز الاستهلاك المسؤول من جديد؟



الفصل السادس

نهايات في المجال السياسي



نهاية السياسة

انتهت السياسة وبلغ نظام التفاهة السياسية غايته ونهايته، وأصبحت الدجاجة السياسية (في السلطة أو في المعارضة لا فرق) تضع بيضة سياسية فاسدة، والبيضة تعطي رغم ذلك دجاجة لكن فاسدة أيضا، التي ستضع بيضة فاسدة، في دورات للفساد السياسي المُقرف الذي يتسم بالرداءة والانحطاط وضعف الأداء على كل المستويات.

لفهم هذه النهاية دعونا أولا ننظر ما السياسة؟

السياسة هي كل ممارسة هدفها الحفاظ على السلطة أو امتلاكها أو التأثير على من يمتلكها باستخدام وسائل العنف المادي والرمزي بشكل غير مفتوح على حدودهما القصوى.. سياسة الدولة (الحفاظ على السلطة) وسياسة الأحزاب والجماعات (السعي إلى امتلاك السلطة) وسياسة مجموعات الضغط (التأثير على من يمتلك السلطة).

تنشأ السياسة من حاجة علاقات السلطة والقوة داخل فريق أو منظمة أو مجتمع أو على مستوى العلاقات الدولية إلى تجنب الانفجار والصراع المفتوح والاضطرار إلى استخدام وسائل العنف المادي والرمزي بشكل مطلق ومفتوح وبحدودهما القصوى.

عندما يقع الانفجار ويتم اللجوء إلى العنف المفتوح والمطلق تنتهي السياسة وتبدأ الحرب. وتنتهي السياسة أيضا عندما يبلغ التحكم والادماج نهايته القصوى، فعندما يتم الانتهاء من ترويض

جميع الفاعلين بسلطة من فوق أو من الخارج أو برقابة ذاتية تنتهي السياسة.

ولنهاية السياسة مظاهر متعددة:

1. **نهاية الديمقراطية السياسية:** في الكثير من الدول التي تُصَنَّف أنها ديمقراطية بانتساب عريق لنادي الديمقراطيات نجد "عائلتين ملكيتين" تتناوبان على الحكم وهذا منذ عقود أو قرون! فأين الديمقراطية السياسة مع هذه "الجمهوريات الديمقراطية الملكية"!؟

2. **نهاية القيادة السياسية:** ما يجري الآن في الكثير من دول العالم مثل بريطانيا مع بوريس جونسون أو الولايات المتحدة مع دونالد ترامب أو كوريا الشمالية مع كيم جونغ أون يعزز الاستنتاج بأن السياسة تتجه نحو النهاية. المواقع السياسية القيادية التي كنا نعتبرها بالأمس استراتيجية وتحتاج إلى أذكياء وحكماء أصبحت اليوم محتلة وبشكل استراتيجي من طرف أغبياء ومجانين. يبدو أن احتلال هذه المواقع أصبح تكتيكاً وعلينا أن نبحث عن الاستراتيجية في مواقع أخرى.

3. **نهاية الهوية السياسية:** الهويات السياسية الواضحة والحدود الإيديولوجية الفاصلة بين الفاعلين السياسيين انتهت؛ لم يعد اليمين يمثل اليمين مع بروز فاعلين جدد على يمينه (مثال حزب المحافظين في بريطانيا)، ولا اليسار يمثل اليسار مع بروز فاعلين جدد على يساره (مثال حزب العمال في بريطانيا)، ومع تكدس الغالبية العظمى في الوسط يبدو

أن الدولة أصبحت كلتا يديها يمين، وحتى المشاريع والبرامج السياسية أصبحت متشابهة وبدون لون سياسي وأيديولوجي واضح ومتمايز .

4. **نهاية التأطير السياسي**: الأحداث السياسية الكبرى (مثال حركة احتلوا وول ستريت وحركات الربيع العربي) أصبحت تحدث بعيدا عن تأطير الفاعلين السياسيين التقليديين وخارج نطاق السياسة كما نعرفها .

5. **نهاية الفكر والخطاب والقيادة والفعل**: القوة الاقتراحية للفاعلين السياسيين أصبحت بئيسة، ولغة الخطاب السياسي أصبحت متدنية، والقيادات السياسية أصبحت تفتقد إلى الكاريزما والمصداقية، والفعل السياسي أصبح يفتقد إلى المبادرة والانسجام والفعالية .

6. **نهاية المشاركة السياسية**: النسب المتدنية جداً للمشاركة في الانتخابات في كل أنواع الاستحقاقات الانتخابية وفي كل الدول .

7. **نهاية الارتباط العضوي بالجماهير**: أصبحت الطبقة السياسية بكل أنواعها وأشكالها وألوانها، المشاركون في اللعبة والمقاطعون لها والمعرضون عنها، مقطوعة عن الشعب وعن الجماهير وعاجزة عن الوفاء بوعودها (وعود الدولة للشعب، ووعود الأحزاب للناخبين، ووعود المعارضة لأتباعها) .

ماذا بقي إذن من وظائف السياسة؟

- **السعي لامتلاك السلطة؟** تبخرت الأحلام من زمان بين هواة الإصلاح من الداخل الذين انتهوا إلى الذوبان السياسي، ومحترفي المعارضة الأبدية الذين ينتظرون غودو !

- **إدارة صراع الطبقات الاجتماعية؟** انتهى هذا الصراع من زمان وأعلن علماء الاجتماع عن وفاته !

- **تأطير المواطنين وترويضهم لمصلحة الدولة؟** المواطن فقد الثقة في العبد والمعبود والمعبد.. في الأحزاب والدولة والسياسة، وسياسة منع الناس من التدخل فيما يخصهم أثمرت من جهتها حالة عامة من العزوف عن السياسة والإعراض عن السياسيين !

إنها النهاية بعلامات الساعة الكبرى: استبدلت الصراعات الجماعية التي خاضها الفاعلون السياسيون في الماضي كالصراع الطبقي والصراع على الاستقلال والصراع على السلطة والصراع على الحقوق، الصادقة منها والمنافقة، بنضالات من فئة خمسة نجوم في مكاتب فاخرة ومكيّفة وأمام شاشات التلفزيون من جهة المعارضة السياسية، وبألعاب الجوع وألعاب الخوف من جهة السلطة السياسية، وبصراعات الفردانية الجديدة على التصنيفات والترتيبات من يكون الأول أو يبقى آخر شخص على قيد الحياة من جهة الجماهير .

انتهت السياسة بنهاية العمق والتحول إلى التفاهة والتسطيح من خلال قصف العقول والإرادات على مدار الساعة بأخبار الموت والمعاناة

أو بأخبار الحياة الشخصية لنجوم السينما والغناء والرياضة، وجعل القضايا التافهة تصبح مهمة لتؤدي وظيفة إخفاء القضايا الحيوية.

وانتهت السياسة أيضا بنهاية المعرفة العميقة والفكر الحي المتفاعل والتحول إلى المعلومة السريعة العابرة للشبكات الاجتماعية المصممة لتعظيم عدد النقرات والمشاركات والإعجابات لا للتمييز بين الحقائق والأباطيل أو التحقق من الدقة أو نقد الممارسات الخاطئة أو تعزيز المواقف الصحيحة.

في المشهد السياسي اليوم "**الخيل مربوطة والحمير تتسابق**" بالوصف الجامع المانع للشاعر الصوفي المغربي عبد الرحمن المجدوب، وهكذا اسْتُبْدِل بالفاعلين السياسيين من أصحاب المشاريع المتكاملة والمواقف الواضحة والمبادرات الشجاعة والاستراتيجيات الذكية جيل جديد من السياسيين الفاشلين الذين يصلحون فقط للركوب أو للزينة: **المُرَوَّضون منهم للركوب والمتوحشون للزينة**.

أمام هذا الفراغ المهول، للطيبين أن يطرحوا السؤال: من سيملأ الفراغ وكيف؟ خاصة أن السياسة تخشى الفراغ، أما بالنسبة للرأسمالية العالمية المتوحشة فالسؤال غير مطروح لأن الخيار واضح وفعّال بنظرها: لقد اختارت ثقة الأسواق أما ثقة الشعوب فتتكفل بها ألعاب الجوع وألعاب الخوف.

نهاية القيادة

نعيش تحولاً متوحشاً عنوانه الانتقال بدون قيادات، وفي مرحلة انتقالية دقيقة وحرجة من التاريخ التي نحتاج فيها إلى قيادات قوية وذكية ومسؤولة !

تحوّلات جذرية وشاملة وسريعة بدون قيادات! إنها سُخرية الأحداث التاريخية المتسارعة التي ترمي بنا في يمّ مستقبل مجهول وغامض ومضطرب بدون قيادات قوية وفاعلة .

ومن نكد الدنيا علينا أن المواقع التي كنا نعتبرها بالأمس قيادية وتحتاج إلى شخصيات قوية وذكية وحكيمة ومسؤولة أصبحت اليوم محتلة وبشكل متزايد من طرف شخصيات ضعيفة وغبية ومجنونة وغير ملتزمة بالقواعد والأدوار، أو شخصيات طيبة وساذجة ملتزمة بكل شيء إلا الأدوار القيادية .

يبدو أن هذا الوضع هو أحد النتائج المباشرة لنظام التفاهة الذي سيطر على العالم في العقدين الأخيرين: انتقال من دون قيادات وأفكار على مستوى التحديات !

مظاهر هذه النهاية واضحة وعلى الكثير من المستويات :

- **في مجال القيادة السياسية** تراجعت بل انهارت قدرة الأحزاب وقياداتها على التأطير، بحيث أصبحت أغلب الأحداث الكبرى تتم بعيداً

عن تأطير الأحزاب وخارج سيطرتها. أصبحت الأحزاب مجرد شركات سياسية تبيع خدمة تأطير المواطنين للدولة وتتربح من مداخيل هذا التأطير، وأصبحت الفعاليات الداعمة للقضايا الكبرى كقضية فلسطين وقضية حقوق الإنسان بدون قيمة مع مرور الوقت، بل أصبحت تستغل غالبا لأغراض انتخابية فقط أو لتسجيل حضور باهت .

- **في مجال القيادة النقابية**، انتهى زمن القيادات النقابية الكبرى التي قادت نضالات نقابية وحقوقية وسياسية وفكرية سجّلها التاريخ بفخر، ولم تعد النقابات تلك الأداة التي يستخدمها المظلومون للدفاع عن حقوقهم، وإنما أصبحت بدورها مجرد وكالات تبيع خدمة تأطير ما بقي من المنخرطين للدولة وخدمة ما بقي من قدرة على الضغط لمجموعات المصالح، وأصبحت اللامبالاة المدوّية تجاه النقابات وقياداتها هي الموقف العام السائد .

- **في مجال القيادة الاقتصادية** تتأرجح القيادة بين ثلاثة نماذج: قيادات اقتصاد الريع المُكوّنة من عائلات اقتصادية محدودة جداً، تفتقد إلى الانتماء الوطني والانساني، وتتربّح الثروات الضخمة من الريع، ولا تساهم بأي قيمة مضافة حقيقية في النمو الاقتصادي والتنمية الاجتماعية، وقيادات "لاشيء مستحيل" الشابة التي تعيش على أوهام التنمية الذاتية، والقيادات المُثابرة التي لا تملك من الاستعدادات والمؤهلات القيادية إلا جديتها في العمل ونَفَسَها الطويل فتنجح أحيانا وتفشل أحايين بسبب اللعبة الاقتصادية غير العادلة .

- **في مجال القيادة الإدارية** نجد أن الموظفين يفتقرون إلى القيادة الفعّالة؛ فكبار السن منهم منطوون على أساليبهم المحافظة والصلبة التي عفا عليها الزمن، وعاجزون عن فهم التحولات الجارية حولهم، وفهم خصائص وحاجات الأجيال الجديدة وقواعد اللعبة الجديدة. أما الجيل الجديد من الشباب فيفتقر إلى الخبرة والتجربة في الإدارة والقيادة، ويعيش منطويا بدوره في عوالم افتراضية منقطعة عن الواقع .

- **في مجال القيادة الفكرية** لم يعد الفكر يواكب الأحداث ويوجهها، ويُؤطر الصراعات الفكرية بقوته النقدية والاقتراحية، ويُنتج خطابات لكل مجال ومرحلة.. القيادات الفكرية اليوم، إن وجدت، لا تنتج إلا أدباً بئيساً يتأرجح بين الشكوى والأمل، أو منظومات أفكار جامدة متوقفة عن النمو .

في كل مجالات القيادة، تجد انعداماً في الرؤية الاستراتيجية، وضعفاً في القدرة على التعبئة والتأطير والتوجيه، وبؤساً في الفعل والفكر والخطاب.. "قيادات" ضعيفة منغمسة في تدبير المستعجلات والحرائق اليومية فقط .

هذه هي مظاهر نهاية القيادة فما الأسباب؟

الأسباب متعددة ومتداخلة أهمها أربعة: بؤس برامج صناعة القادة، والتأثير السلبي لوسائل التواصل الاجتماعي، وتحولات الأسس السيكولوجية للقيادة، ولعبة الديمقراطية الزائدة .

- **برامج صناعة القادة:** كان تعليم القيادة بالأمس صناعة خاصة بالنخبة ومُوَجّهة فقط لمن يملكون استعدادات القيادة، وكان حجم معاملات هذه الصناعة يبلغ ملايير الدولارات، أما اليوم فأصبحت صناعة مبتذلة جعلت الجميع يعتقد أنه قائد. أصبحت برامج تعليم القيادة اليوم تُعلّم شيئاً واحداً فقط: "أن تكون ناجحاً.. ولكي تكون ناجحًا يجب أن تكون قائداً". تبخرت بديهية أنه لا يمكن للجميع أن يكونوا قادة في نفس الوقت، وأن الأستاذية تبدأ بالتلمذة، وأن رحلة تعلم القيادة الحقيقية رحلة طويلة وشاقة لا فرصة تعلم في خمسة أيام بدون معلم، وغاب تعليم فضائل التعاون والتكامل وفنون التفاوض والتحالف التي تجعل المستحيل ممكناً، وحلّ محلّه تعليم فنون الاستقطاب في أحدّ (من الحِدّة والحِداد!) صوره وأبشعها .

- **وسائل التواصل الاجتماعي**، التي عملت على تسريع عملية نهاية القيادة حيث سمحت بإغراق ما بقي من قادة بمطالب وانتقادات بعضها مشروعة وغالبيتها مبتذلة مما جعل القادة يشعرون بشكل متزايد بتجريدهم من سلطتهم وتأثيرهم، وعملت أيضاً على توليد وهم إمكانية لعب أدوار قيادية فقط من خلال استحداث قناة خاصة وتكوين جمهور صغير .

- **سيكولوجية القيادة:** القيادة توجد في أعين الأتباع، فالأسس النفسية للقيادة هي الخوف والتوهم والطمع عند الأتباع، فلولا الخوف لما كان أمر ولولا التوهم لما كانت هيبة ولولا الطمع لما كان ولاء، لكن يبدو

أن هذه الأسس في طريقها للتحول بحكم طبيعة الأجيال الجديدة وخصائصها، وعلينا أن ننتظر حتى تتضح الأسس النفسية الجديدة للقيادة إن وجدت.

- **لعبة الديمقراطية الزائدة**: المزيد من الديمقراطية أمر جيّد، فالناس كل الناس يجب أن يكون لها صوت، لكن الكثير من الديمقراطية تُعَطِّل الديمقراطية.. إن الحرية التي ترفع شعاراً مطلقاً تُخفي نيات الاستعباد، والديمقراطية الزائدة تؤدي إلى شلل القيادة، ولا يمكن للجميع أن يكونوا قادة في نفس الوقت.

إن وجود عالم بدون قيادات هو واقع غير طبيعي لأن القيادة ظاهرة اجتماعية طبيعية، ومُعطى غير منطقي لأن الطبيعة تخشى الفراغ؛ والتفسير الوحيد لهذا الوضع هو واحد من ثلاثة افتراضات:

- إما أننا نمر وبشكل غير عادي بأزمة قيادة عالمية وفي كل المجالات.

- أو أن احتلال المواقع القيادية أصبح شكليا ومجرد واجهة للإلهاء وتحويل الأنظار عن المواقع الحقيقية للقيادة، وعلينا بالتالي أن نبحث عن القيادات الحقيقية في مواقع أخرى، وأن نقتنع بأن الأمور الأكثر أهمية في هذا العالم الجديد أصبحت خَفيّة ولا يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة وبأدوات التحليل التقليدية.

- أو أن المراكز التقليدية للسلطة والقيادة في طريقها للاختفاء، وفي المقابل بدأت تتشكل مراكز جديدة للسلطة والقيادة، فالتحول مثلا من الفعل في الواقع إلى الفعل في العالم الافتراضي خلق نوعاً جديداً من "القيادات الافتراضية" التي تمارس التأثير من خلال الشبكات الاجتماعية والإنترنت .

كيفما كانت الفرضية التي تُفسر نهاية القيادة، يبقى الشيء الوحيد المؤكد هو أن عصر القيادات التاريخية الكبرى، القوية في مواقفها، الصائبة في توقعاتها، السريعة في مبادراتها، الذكية في ركوبها موجات التغيير، الشُجاعة في استثمارها الفرص التي تُتيحها الأزمات، والتي تمنح الثقة بالذات وفي المستقبل مهما كان حجم القصور المرحلي ومستوى التحديات، قد ولى وانقضى! أيتام نحن بدون قيادات في عالم سريع التحولات! كان الله لنا!

نهاية الديمقراطية

يعطينا التاريخ درساً مهما في التحوّلات الكبرى: في فترات الأزمات المُظلمة تصبح المشروعيات أمام اختبار المصداقية والصلاحية، ويصبح مصيرها رهنا بقدرتها على تقديم إجابات حقيقية وحلول فعّالة للأزمة.

فلو أخذنا الدولة (المشروعية السياسية) مثلا سنجدها تُعزز مشروعيتها في ظل الأزمات الكبرى أو تفقدها على قدر سيطرتها على المأساة؛ وعبر التاريخ شاهدنا دولا سقطت في اختبارات المصداقية والصلاحية بسبب فشلها في مواجهة التحدي، أو تضاعفت قوتها وتعززت مكانتها لنجاحها في هزيمة الأزمة المظلمة.

عندما يتعرض بلد ما لهجوم من عدو خارجي يبرز الجندي في الواجهة باعتباره الشكل الفعال لحماية الوطن وتُهيمن مشروعيته على كل مشروعية. وعندما يكون الأمن الداخلي هو التحدي يبرز الشرطي في الواجهة باعتباره الشكل الفعّال والوحيد لحماية حياة الناس وتتصدر مشروعيته كلَّ مشروعية. وعندما ينزل بالناس وباء قاتل تكون الصحة والحياة هو التحدي ويحل الطبيب محل الجندي والشرطي وتعلو مشروعيته كلَّ مشروعية. في كل هذه الأحداث درس أساسي واحد: يوجد سُلَّم للأولويات ينافس سُلَّم القيم ويتحداه.

إن المشروعيات بأنواعها المختلفة تتعزز الثقة فيها عندما تنجح في تقديم إجابات مقنعة وحلول فعّالة، أو تُصبح موضع شك عندما تفقد

التحكم وتفشل وتسوء الأمور بشكل كارثي، وفي هذه الحالة يتم استبدالها، بعد فترة انتقالية مظلمة للأسف، بمشروعية جديدة ونظام قيم جديد.. إنه اختبار الصلاحية والمصداقية التاريخي: الحل أو الطوفان !

الأزمات المُظلمة اختبارات حدّية، لا تعترف بأنصاف الحلول مخرجاً من الأزمة. وفي هذا النوع من الاختبارات الحدية لا يهتم الناس بأخلاقية النموذج الجديد بقدر ما يهتمون بفعّاليته في التصدي للأزمة؛ فالناس يمكن أن تتخلى عن حلمها بنظام قائم على حماية الحقوق والحريات الفردية والديمقراطية، وتقبل بنظام قائم على الاستبداد ومراقبة الحياة الشخصية باستخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي إذا كان يقدم حلولا فعّالة لتحدي الموت، والصين اليوم أوضح نموذج. إن سلم الحاجات الأساسية أسبق في وعي الناس ومطالباتهم من سلم القيم السامية، والأزمات المظلمة لا تصنع هذا الوضع وإنما تكشفه بوضوح فقط، فهل يراجع المثاليون أولوياتهم؟

يبدو إذن أن المشروعية الديمقراطية في طريقها إلى محطتها النهائية أيضاً، ومظاهر هذه النهاية متعددة :

ـ تغوّل دولة الذكاء الصناعي وأنترنت الأشياء والبيانات الضخمة وما ستتيحه هذه التكنولوجيات من تعظيم قدرة الدولة على التحكم والمراقبة والقمع، وتراجع الحريات بشكل مطرد مع توسع تكنولوجيا المراقبة وتطور الهندسة الجديدة للقمع .

ـ التدخل المتزايد للدولة في الحياة الشخصية للأفراد من خلال مراقبة الاتصالات الهاتفية والبريد الالكتروني واستخدام التطبيقات .

ـ سن المزيد من القوانين المتعلقة باستخدام الأنترنت ووضع تشريعات جديدة تسمح للدولة بمراقبة التدوينات على الشبكات الاجتماعية وملاحقة النشطاء على الأنترنت وتعمل على شرعنة "القمع الإلكتروني ."

ـ ظهور السياسة الشعبوية في عدد من الدول "العريقة في الديمقراطية"، وهي نزعة تؤمن أقل بالديمقراطية وتنتصر أكثر للوطنية والمصالح الوطنية والقومية الخاصة .

ـ ظاهرة ترامب ونظائره بالدول الأوروبية تشير الى اتجاه الدول الديمقراطية الى التخلي عنها والتحول إلى سياسات سلطوية داخليا وخارجيا قائمة مثلا على الحد من الحريات الشخصية والعقوبات الاقتصادية بدل المنافسة الحرة .

ـ تراجع الاهتمام بمبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان في السياسات الخارجية للدول الديمقراطية، وهيمنت المصالح الاقتصادية بدل الديمقراطية وحقوق الإنسان على العلاقات الدولية والسياسات الخارجية .

ـ فساد الديمقراطيات، والديمقراطية الفاسدة أكثر خطورة من الاستبداد، لأن الاستبداد واضح في طبيعته وحدوده أما الديمقراطية

الفاسدة، وهي أكد فسادها الأصلي تشرشل عندما عرّفها بأنها أقل الأنظمة فسادا، تتيح بحكم صلاحها الظاهر وفسادها الخفي إمكانيات رهيبة في التلاعب بالمبادئ باسم المبادئ وفي تضييع المصالح تحت غطاء المبادئ .

أما أسباب نهاية الديمقراطية فمتعددة أيضاً، أهمها :

ـ المراجعات الفكرية الجارية للفلسفة الليبرالية ولدور الدولة الذي يتحول من مجرد مقنن وحارس ومنظم إلى فاعل ومتدخل .

ـ ظهور مبررات جديدة "للعنف المشروع" الذي تمارسه الدولة، إذ لم يعد المبرر هو الحفاظ على الأمن العام وإنما الحفاظ على الصحة العامة .

ـ بعد سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفييتي انتشر النظام الرأسمالي بشكل سريع في أغلب دول العالم، لكن لم تنتشر معه الديمقراطية، وهذا دليل على عدم تلازمهما، والحالة الصينية أوضح مثال على إمكانية التحول للرأسمالية دون الديمقراطية .

ـ ازدياد تركز الثروة وتراكمها على المستوى العالمي بأيدي فئة قليلة أصبحت هي المتحكمة بالاقتصاد العالمي والمؤثرة في السياسة العالمية وفي الديمقراطية نفسها، بحيث أصبحت الديمقراطية تُدار حسب مصالح رأس المال .

ـ إفساد الديمقراطيات بالمال، وفضيحة رشوة الملك خوان كارلوس، وقد كان رمزا للتحول من النظام الديكتاتوري لفرانكو إلى النظام الديمقراطي، ليست عنا ببعيد.

ـ الصراع الصيني الأمريكي وإغراء النظام السياسي الصيني من جهة فعاليته الواقعية كما ظهرت في إدارة أزمة وباء كورونا (كوفيد 19)، وفي تحقيق التقدم الاقتصادي بدون ديمقراطية، ولو تحوّلت الصين إلى الديمقراطية على النموذج الغربي قد لا تكون حققت التقدم الاقتصادي الذي حققته بنظامها الاستبدادي.

إنها نهاية الديمقراطية، وما يزيد طينها بلّة طبيعة الدولة في عالم ما بعد كورونا التي استفادت من الأزمة العالمية لتعزيز أحقيتها في ممارسة المزيد من "**العنف المشروع**"!

نهاية الحريات الفردية

تؤكد تجربة الصين مع العولمة أن ركوب موجات الآخرين خيار استراتيجي ذكي، فالصين نجحت في ركوب قطار الآخرين وهو يمشي، بل حولت وجهته بما يخدم مصالحها، لكن سنكون مخطئين إذا افترضنا أن هذا الركوب ذكاء غير محفوف بالمخاطر؛ فصانعو موجات التغيير يعملون دائما على طلاء ظهورهم بالصابون لئلا ينجح أحد في ركوبها، فما كل من حاول الركوب نجح في الركوب، ولا كل من ذاق الهوى عرف الهوى، ولا كلُّ من شرب المدام نديمُ، وأغلب من ركب موجات الآخرين وجد نفسه في النهاية يخدم مشاريعهم لا مشروعه الشخصي. فما أحوجنا إذن إلى تحليلات عميقة للموجات الجديدة للرأسمالية العالمية لفهمها ومعرفة أفضل الاستراتيجيات لركوبها .

من هذه الموجات الجديدة، بل من أخطرها، موجة الاقتصاد الرقمي، فنحن بحاجة إلى إدراك التغييرات التي تفرضها التحولات الرقمية وأنترنت الأشياء والذكاء الاصطناعي والبيانات الضخمة على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأفراد والمجتمعات والأمم .

نعيش اليوم مرحلة متقدمة من "**الرأسمالية المعرفية**" يمكن أن نسميها "**رأسمالية أتمتة الأشخاص وصناعة المراقبة**"؛ وهي نموذج جديد للسوق ابتكرته أساساً شركات التقنية الأمريكية الكبرى وخاصة غوغل وفيسبوك، وهو قائم على جمع البيانات الضخمة وتحليلها من

خلال خوارزميات ذكية ووضع السيناريوهات للتدخل في العالم الواقعي بكل أبعاده ومستوياته .

إن الرأسمالية المفترسة تعمل اليوم على تغيير قواعد اللعبة بتوسيع مجال السوق من جديد من خلال اعتبار التجربة البشرية مادة خاما مجانية للممارسات التجارية الخفية المتمثلة في جمع البيانات الضخمة Big data وتحليلها، والتنبؤ بناء على نتائج التحليلات، والبيع من غير شراء وبالجملة بناء على السيناريوهات التي تم التنبؤ بها. ويعتبر، في هذا الإطار، البريد الالكتروني والتخزين السحابي وخرائط غوغل وأنظمة تشغيل الهواتف الذكية وتطبيقات الهواتف واليوتيوب والفيسبوك وتويتر والسيارات ذاتية القيادة وأنترنت الأشياء، كلها وسائل لتوسيع "الطرق الضخمة والسريعة للإمدادات" الخاصة بشركات التقنية العالمية الكبرى للحصول على بيانات المستخدم الشخصية من داخل الشبكة وخارجها .

إن التنبؤ بما سيشتريه الناس يعتبر العنصر الأساس في صناعة الدعاية، والتنبؤ بمن سيصوت عليه الناس يعتبر العنصر الأساس في اللعبة الانتخابية، ومراقبة من يثق فيه الناس ويتابعونه يعتبر العنصر الأساس في صناعة الوعي. في عبارة واحدة: من يملك محركات بحث أقوى، وأجهزة استشعار أكثر، وكاميرات مراقبة أدق، وبيانات مواقع أوسع، فهو يملك معلومات أكثر ومصادر تدفق معلومات أسرع وأقوى، وسيمتلك بالتالي ميزة تنافسية تمكنه من نهج سياسات توسعية يصعب اللحاق بها

واستراتيجيات تحكمية يصعب مقاومتها، ومن أوضح الأمثلة على هذه الحقيقة المرعبة الرباعي الخطير غوغل وأمازون والفيسبوك وآبل .

إن التهديد الذي تمثله موجة أتمتة الأشخاص وصناعة المراقبة لا يتمثل في مراقبة البيانات الشخصية ومراكمتها، الأمر أعمق وأخطر من ذلك بكثير. إن شركات التقنية الكبرى هم قادة العالم الجدد، لأنهم نجحوا في خلق أشكال جديدة من السلطة (سلطة المعلومة الرقمية) ومن وسائل التعديل السلوكي التي تعمل خارج نطاق الوعي الشخصي للفرد باستخدام هذه السلطة الجديدة. وقد مكنهم هذا النجاح من كسب **الحروب الكبرى الثلاث لعالم اليوم: حروب الوعي، وحروب المعرفة، والحروب التجارية**. إن الضبط توأم المراقبة، وحيثما وجدت مراقبة وجد الضبط .

هكذا أصبح الوجود، في عصر أتمتة الأشخاص وصناعة المراقبة، حرب معلومات، والسيطرة فيه تؤول لمن استطاع أن يراقب المعلومات ومصادر تدفقها، ويضبط من خلال مراقبتها الوعي والمعرفة والأسواق.. هكذا أصبحت الموسيقى التي يرقص البشر على إيقاعها اليوم هي الخوارزميات الذكية التي تجمع وتحلل المعلومات وتضع سيناريوهات التحكم والضبط والبيع، والأمثلة على هذه التطبيقات الخطيرة لمراقبة المعلومات كثيرة: مقاطع فيديو التزييف العميق، استخدام المعلومات الشخصية في الحروب السياسية، نماذج الأعمال الجديدة المبنية كليا على قواعد المعلومات الضخمة .

ما العمل إذن تجاه هذه الموجة الجديدة للرأسمالية العالمية؟ وكيف نواجه رأسمالية أتمتة الأشخاص وصناعة المراقبة؟

إن الشيء الوحيد الذي سيزعج الرأسمالية العالمية اليوم وغدا ويرعبها هو بقاء أشخاص وجماعات خارج منظوماتها الذكية لجمع وتحليل المعلومات! فهل نتوقف عن ركوب موجة أتمتة الأشخاص ونختفي من العالم الافتراضي؟ إذن نصبح مع الوقت خارج التاريخ! أم نركب الموجة دون خطة ذكية للمواجهة؟ إذن تأكلنا الرأسمالية المعرفية المتوحشة !

لضمير الرأسمالية، إن كان لها ضمير، أن يبحث عن طرق التحقق من قوة شركات التقنية الكبرى، و"مساءلة الخوارزميات"، ويؤسس لحركة مضادة جديدة تقيد رأسمالية المراقبة باسم الحرية الشخصية والديمقراطية. أما نحن المستضعفون على الضفة الأخرى من التاريخ والفعل فيه، فحاجتنا مختلفة، ولن يفيدنا في شيء الدخول في حركات الرأسمالية التصحيحية .

حاجتنا اليوم هي أن نعلن بكل شجاعة عن نهاية دورة تاريخية؛ لقد أصبحت اللعبة أكبر منا وانهزمنا وانتصر الماكرون! وعندما تصبح اللعبة أكبر منك عليك أن تسأل نفسك أين كنت عندما كان الماكرون يوسعون سيطرتهم على العالم، وتستخلص دروس نهاية الدورة وتستعد لدورة تاريخية جديدة.

نهاية الدولة الاجتماعية

الدولة هي جانوس؛ ذلك البطل الأسطوري في الميثولوجيا الرومانية ذو الوجهين: وجه الخير ووجه الشر؛ وجه اجتماعي خدمي ووجه اقتصادي ومالي احتكاري. فالدولة من جهة هي الضامن لمصالح الفئات الهشّة والمهمشة ثقافيا واقتصاديا بحكم مسؤوليتها الاجتماعية من خلال قطاعات حيوية كالتعليم والصحة والتوظيف، ومن جهة أخرى هي الضامن لمصالح الفئات المهيمنة اقتصاديا وماليا بحكم أن هذه الفئات هي التي تحتكر السلطة بكل أنواعها .

في كل الدول تتأرجح السياسات بين هذين الوجهين ويتدافع وجه الدولة الجميل مع وجهها البشع باستمرار. لكن السياسات الليبرالية الجديدة للرأسمالية العالمية المتوحشة ضاقت ذرعا بوجه الدولة الجميل وتريد تدمير الدولة الاجتماعية بالكامل .

إن السياسات الليبرالية الجديدة، التي اعتقد الكثير من المفكرين والمحللين أن هدفها هو تدمير الدولة، تستهدف في الواقع تدمير الدولة الاجتماعية فقط، أما الدولة الاحتكارية فهي تساهم في المزيد من انتصارات الليبرالية الجديدة. والتكلفة الاجتماعية لهذه "الانتصارات" باهظة جدا؛ ففي روسيا مثلا، تسبب تدمير الدولة الاجتماعية في انخفاض معدل أمل الحياة عند الولادة بعشر سنوات خلال عشر سنوات .

إن توجه الدولة نحو الانسحاب من الخدمات الاجتماعية هو توجه عالمي مرتبط بالسياسات الليبرالية الجديدة وحاجات الليبرالية الجديدة والمتجددة، ويبدو أن مفهوم "الدولة الاجتماعية" التي تُوَظِّف وتمنح تقاعداً وحماية صحية وتعليماً مجانياً وتعويضات عن البطالة وعن الأبناء ودعماً للمواد الأساسية وغيرها من الخدمات الاجتماعية في طريقه إلى الاختفاء، وها نحن أولاء نشهد كل يوم، وفي كل بلاد الدنيا تقريبا، قرارات جديدة تؤشر على هذا التوجه نحو إعادة اختراع للدولة ولوظائفها بشكل يلغي وجهها الجميل ويبقي فقط على وجهها البشع .

إن الخدمة العامة المجانية (المدرسة العمومية والصحة العمومية والأمن العمومي...) في شكلها الحالي هي اختراع للقرن التاسع عشر، ويبدو أن حاجات الليبرالية الجديدة في عصر الرأسمالية المعرفية والثورة الصناعية الرابعة تتعارض مع هذا الاختراع، فحاجاتها اليوم وغدا تختلف عن حاجاتها في عصور الثورات الصناعية الثلاث السابقة. إن هذه الثورة الصناعية الرابعة تحتاج بنظر روادها إلى سياسات عمومية جديدة تُحَوِّل الخدمات الاجتماعية إلى فرص استثمارية (المدرسة الخصوصية والمصحة الخصوصية والأمن الخاص والسجون الخاصة...)، **لكن المشكلة هي أن الفاتورة الاجتماعية لهذه السياسات ستكون باهظة التكلفة**.

ويبدو أن هذا التغيير لا يمكن تجنبه وأن مقاومته لن تنجح سوى في تأخير وصوله ولن تنجح في منعه. وهنا تطرح الكثير من الأسئلة: هل

هذا التخلي عن الدولة الاجتماعية هو تعبير عن عجز في التفكير السياسي للدولة وفي قدرتها على ابتكار حلول حقيقية، أم تعبير عن ذكاء ماكر في التفكير السياسي الاستراتيجي لمن هم فوق الدولة؟ ومن جهتنا كمفعول بهم لهذه السياسات، هل نساير هذا التوجه الليبرالي العالمي ونركب موجاته (مثلا بتغيير استراتيجيات تربية الأبناء وأولويات الاستثمار في مستقبلهم، والتحول من ثقافة الوظيفة إلى ثقافة ريادة الأعمال...)؟ وهل ينفع ركوب قطار الآخرين بدون استراتيجية؟ وهل تنفع استراتيجية في لعبة أكبر منا ومواجهة نفتقد فيها إلى أدوات المواجهة الفعّالة؟ أم ترانا بحاجة إلى الاستمرار في التَحَصُّن في آخر ما تبقى لنا من قلاع المقاومة: النقد وصناعة الوعي؟ وهل يغير النقد النظري المتأمل ما أفسده طوفان النقد العملي الزاحف!؟ وهل تصمد صناعة الوعي الهاوية أمام صناعة اللاوعي المحترفة!؟

نهاية المصلحة العامة

ما المصلحة العامة؟

رغم أن هذا المفهوم ظهر منذ أواسط القرن السادس عشر، إلا أنه بدلالاته واستخداماته الحالية هو اختراع آخر من اختراعات القرن التاسع عشر الماكرة.

أعطى الانجليز للمصلحة العامة معنى "**مجموع المصالح الفردية**"، وجعلها الفرنسيون "**مصلحة غائية تقع فوق المصالح الفردية وعلى الأفراد الخضوع لها**".

بالمعنى الأول هي تبرير للفردانية المتوحشة، وبالمعنى الثاني هي إيديولوجية للهيمنة والتحكم (مثلا السطو على أراضي الفلاحين وسحب ملكيتها منهم باسم المصلحة العامة، أو سن تشريعات لفائدة فئة معينة بمبرر المصلحة العامة). ورغم ذلك ساد المفهوم وهيمن واعتقد الناس أغلب الناس في هذه الكذبة الكبيرة. وهكذا استخدمت "المصلحة العامة" كإيديولوجية لخدمة مصالح طبقية وفئوية وفردية على حساب المصلحة العامة، أو استبدلت بالمصالح المشتركة التي هي في النهاية مصالح فئوية خاصة تعبر عنها لوبيات. إن "المصلحة العامة" مجرد أداة خطابية يستخدمها الحاكمون لفرض تصورهم للتقدم مهما كلّف ذلك المحكومين.

ولأن العالم يتحوّل، وإيديولوجيات التحكم يجب أن تتحوّل أيضاً لتواكب الاحتياجات المستجدة للأشكال الجديدة للتحكم، كان لابد من

نهاية لإيديولوجية "المصلحة العامة" واستبدالها بإيديولوجية جديدة، ويبدو أن البديل قد ابتُكر وبدأ تفعيله ومفعوله .

تشكل نظريات التنمية الذاتية، التي تغزو اليوم المكتبات والإنترنت وبرامج الراديو والتلفزيون والتدريب والاستشارات، عرضًا مثيرًا للاهتمام، وفي الوقت نفسه مقلقا للغاية؛ مثير لانتشاره السريع والواسع، ومُقلق لقيام "التنمية الذاتية" على فلسفة "المصلحة الذاتية المطلقة". فمع هذه النظريات حدث تحول نموذجي قوي من ثقافة "المصلحة العامة" نحو "الاهتمام الوحيد بالذات" الذي تم إعادة اختراعه كمبدأ أخلاقي مطلق. استنفذ اختراع القرن التاسع عشر (المصلحة العامة) وظيفته، وها هي الرأسمالية العالمية المُتَغَوِّلة المُتَحوِّلة تخترع للقرن الواحد والعشرين ولأجيال الألفية الجديدة مبدأ "التنمية الذاتية" بروح "المصلحة الذاتية".. نزعة فردية متطرفة شعارها أنا والطوفان من بعدي، في عالم يحتاج إلى إعادة اكتشاف المصلحة العامة، كمبدأ للمصير المشترك لا كإيديولوجية للهيمنة، والكفاح من أجلها. وهكذا أصبح الانسحاب من أجل المصلحة الذاتية والسعادة الشخصية ورفاهية الجسد هو السائد .

يبدو إذن أن "المصلحة العامة" في طريقها إلى محطتها النهائية أيضاً، وأسباب هذه النهاية المتوقعة متعددة؛ فمنذ نشأتها لم تكن أبداً واضحة ودقيقة، إذ كانت دائما متداخلة ومختلطة مع المصلحة الجماعية والمصلحة المشتركة، مما فسح المجال دائما لتحقيق مصالح فردية وجماعية باسم المصلحة العامة. وتاريخيا ارتبطت المصلحة العامة بالحق

العام كالحق في التعليم المجاني والصحة المجانية للجميع؛ فالمصلحة العامة منذ نشأتها وهي مرتبطة بالخدمات العامة التي تقدمها الدولة: الصحة العامة، والتعليم العام، والأمن العام... لكن مع نهاية الدولة الاجتماعية والانسحاب المتزايد للدولة من مسؤولياتها الاجتماعية يُطرح السؤال ما الذي بقي من "المصلحة العامة"؟

نهاية الجنسية

تنص المادة 15 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان :

لكل فرد حق التمتع بجنسية ما .

لا يجوز، تعسُّفًا، حرمانُ أيِّ شخص من جنسيته ولا من حقِّه في تغيير جنسيته .

الجنسية انتماء ورابطة قانونية وسياسية تنشئها الدولة للشخص لتجعله مواطنا أو رعية لها. بناء على هذا المفهوم العام لفكرة الجنسية نجد أنها تتأسس على وحدة الصلة بين الفرد الواحد والدولة الواحدة وليس على تعددها بين الفرد الواحد وأكثر من دولة في نفس الوقت .

بعد أكثر من سبعين سنة على هذا الإعلان وهذا المفهوم التقليدي للجنسية يُطرح السؤال عن الذي تبقى منها؟

يبدو أن الجنسية بهذا المفهوم التقليدي في طريقها إلى محطتها النهائية أيضاً، وأسباب هذه النهاية المتوقعة متعددة، منها :

- مع **نهاية الجغرافية** يبدو أن الدولة القُطرية بكل مظاهر سيادتها، ومنها الجنسية، في طريقها إلى الاضمحلال. وتعزز هذا التوجه وتسرّعه السياسات الليبرالية الجديدة التي تستهدف تدمير الدولة القُطرية .

- **العولمة**: عولمة سوق التعليم وسوق الشغل والزواج، وسهولة التنقل والسفر على المستوى الدولي، مما قلّل من الشعور بالارتباط بالوطن الأصلي.

- **الهجرة** بأنواعها، وخاصة هجرة الكفاءات وهجرة رأس المال والهجرة لأسباب سياسية، وظهور الارتباط المزدوج للمهاجرين بالبلد الأصلي وبلد المهجر، وهذا الوضع ترتب عنه ظهور أشكال جديدة للجنسية كالجنسية المكتسبة وازدواجية الجنسية.

- **التحرر المتزايد للأفراد** من الارتباط والانتماء لوطن المولد ومن قيد المكان بدوافع مختلفة عرقية وثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية.

- **الأجيال الجديدة** أقل ارتباطا بالوطن الواحد، فوطنها هو الشبكات الاجتماعية، وتواصلها ونمط عيشها على المستوى الدولي.

- **التحولات العالمية لقوانين الجنسية**، وبداية التحول نحو مفاهيم جديدة ونماذج مبتكرة للجنسية، أهمها خمسة:

- التمييز بين الجنسية والمواطنة؛ إذ من الممكن منح الجنسية بدون حقوق المواطنة، أو منح المواطنة الجزئية بدون جنسية كما في الشيلي ونيوزيلندا الجديدة.
- التمييز بين الجنسية السياسية والجنسية الثقافية.
- الجنسية المكتسبة وازدواجية الجنسية.
- البدون أو الابارتايد بلغة القانون، وهم من لا جنسية لهم. فهؤلاء سيصبحون أصلا بعد أن كانوا استثناء، وستصبح البدون في عصر نهاية الجنسية ميزة بعد أن كانت عقابا.
- الجنسية الكونية.

صحيح أن المفهوم التقليدي للجنسية لا يزال قائما بقوة القانون والأمر الواقع، وصحيح أيضاً أنه لم يستطع أي مفهوم جديد للجنسية لحد الآن فرض نفسه كمفهوم وحيد بديل، لكن الشيء المؤكد هو أن المفهوم الحالي للجنسية سيختفي في القرن الواحد والعشرين.

نهاية الغرب

للغرب أعداء كُثُر، وهم في غالبيتهم ضحايا سياساته الاستعمارية المتوحشة، لذلك تجد ضحاياه يسارعون، في شماتة العاجز، للفرح والانتشاء الغبي بأخبار موته ونهايته للتعويض نفسياً عن فشلهم وتخلفهم.. هذا حال الطيبين يجعلون دائماً العاطفة المجنّحة أول أسلحتهم وآخرها .

فرضية "نهاية الغرب" ليست جديدة، فعلى امتداد المائة سنة الأخيرة تبنى هذه الفرضية الكثير من العلماء والمفكرين الغربيين من أمثال اسوالد شبينغلر في كتابه "تدهور الحضارة الغربية"، وباتريك بوكانان في كتابه "موت الغرب"، وإريك زمور في كتابه "انتحار فرنسا"... إلا أن الصعود الأخير للصين كقوة عالمية عظمى، وصعود الوباء العالمي الحالي في الغرب وفق مسارات كارثية وبشكل غير متوقع، منح هذه التحليلات العلمية والفكرية الداعمة لفرضية "نهاية الغرب" المزيد من المصداقية .

فرضية "نهاية الغرب" مؤكدة، ومظاهر هذه النهاية واضحة وعلى الكثير من المستويات :

1. **الموت السياسي** المتجسد في نهاية الانفراد بالهيمنة والريادة العالمية بسبب صعود قوى عالمية جديدة كالصين وروسيا والهند وتركيا، وتراجع الغرب عن المكانة السياسية التي كان يحتلها سابقًا على المستوى العالمي .

2. **الموت الاقتصادي**، ليس فقط بسبب العجز التجاري، أو الإغلاق الاقتصادي الأخير، أو تسارع الموت والدمار الاقتصادي مع انتشار فيروس كوفيد 19، فالموت الاقتصادي كان واضحا منذ بداية تراجع قوة الاقتصاد الأمريكي والأوربي مقارنة بالأداء المتميز والمتعاظم للاقتصاد الصيني الذي تفوق هذه السنة (2020) على الولايات المتحدة الأمريكية في الكثير من المؤشرات الاقتصادية (مثلا الاستثمار الأجنبي المباشر).

3. **الموت الاجتماعي** بسبب ارتفاع الفاتورة الاجتماعية للسياسات الرأسمالية المتوحشة: ارتفاع حاد في معدلات الانتحار، ومعدلات إدمان المخدرات، ومعدلات الطلاق، والتحول من الأسرة النووية إلى الأسرة وحيدة الأبوين، ومعدلات الجريمة المرتفعة، وتزايد التفاوت بين الدول وداخلها، وتزايد أمراض الحضارة المعاصرة كالاكتئاب والسكري ...

4. **الموت الفكري الثقافي** بسبب تعرض الغرب لثورة فكرية وثقافية في العقود الأخيرة بفعل نخب ثقافية وفكرية عليا اجتهدت في تفكيك منظومته الأسرية والتربوية والتعليمية والقيمية، وخلق أمة جديدة مهجنة ثقافياً وفكرياً، وبسبب التشكيك الداخلي من أبنائه في نموذجه للديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية.

5. **الموت الديموغرافي** الناتج عن النقص السكاني المرتبط بانخفاض معدلات الخصوبة التي هبطت إلى (1 طفل) لكل امرأة، علما أن

الحد الأدنى لتعويض وفيات السكان الموجودين الآن دون الحديث عن زيادة عددهم هو (2 طفل) . وإذا بقيت معدلات الخصوبة الحالية على ما هو عليه فإن عدد سكان أوروبا البالغ أكثر من 700 مليون نسمة سيتقلص إلى حدود 200 مليون في نهاية هذا القرن .

6. **موت القوى البشرية العاملة** بسبب الانخفاض الحاد في معدلات الولادة والارتفاع الكبير في معدلات الشيخوخة وخاصة في أوروبا "القارة العجوز". إن الغرب يموت بعد أن أصابته الشيخوخة حسب تعبير باتريك بوكانان .

7. **الموت العرقي** بسبب موجات الهجرة غير النظامية وما ترتب عنها من تنوع ثقافي وعرقي وفقدان الهوية الموحدة المنسجمة وتحول المواطن الغربي بمرور الزمن إلى أقلية هشة في مجتمعه .

8. **الموت البيئي** بسبب الاحتباس الحراري وتدهور التوازن البيئي والكوارث الطبيعية كالأعاصير وارتفاع مستويات البحار، فالغرب يعيش على تهديد كوارث بيئية عظمى .

9. **الموت العلمي** بسبب بداية تخلف أمريكا والاتحاد الأوربي عن الصين في مجالات الابتكار والبحث العلمي المختلفة كالإنفاق على البحث العلمي. وبراءات الاختراع، والمقالات العلمية، واستخدام تكنولوجيا الاتصالات، واستخدام الروبوتات الصناعية ...

صحيح أن نهاية الغرب لن تكون بكل تأكيد على شاكلة نهاية البالونات المتضخمة التي تنفجر عند أول احتكاك لها بشيء حاد، لأن حضارة الغرب الحالية هي ثمرة تراكم تاريخي طويل امتد لقرون وفي كل المجالات والمستويات. لكن الحقيقة اليوم وغدا هي أنك حيثما وليت وجهك تجد الكثير من مؤشرات نهاية الغرب. ومع ذلك لا داعي للفرح.. لأن نهاية الغرب لا تعني نهاية الشر الذي يتلبس جسده (الروح الاستعمارية والنزعة الامبريالية والفظائع التي ارتكبت في افريقيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية وآسيا والسياسات الاقتصادية المتوحشة عبر العالم...). **امبراطورية الشر العالمية ليست غبية لتربط مصيرها بدولة أو أمة! فعندما يموت الجسد يخرج منه الشيطان الذي يتلبسه إلى أرض الله الواسعة بحثاً عن جسد جديد أكثر حيويةً ونشاطاً!**



خاتمة

بداية دورة تاريخية جديدة



خاتمة: بداية دورة تاريخية جديدة

من بداية هذا الكتاب قلنا أن ما يحدث الآن ليس تغييرا للعبة ولقواعدها وإنما تفجير لها من الداخل، وأن الانفجار العظيم سيأتي على الأخضر واليابس وسيعصف بمن لا يجيدون المشي على اليابسة، وبمن يتقنون السباحة أيضاً. من هذا المنطلق فإن **فقه النهايات ضرورة حيوية لاستشراف مستقبل غامض ومُرعب، بهدوء نفسي وعمق فكري وشجاعة عملية**.. ضرورة حيوية ومصيرية لنضع حداً لاستغلال التغييرات والتحولات الجارية في تعزيز الأنانيات الجشعة وتقوية التحكم المطلق وصناعاته: صناعة الجوع، وصناعة الخوف، وصناعة الوهم، وصناعة الأمل الكاذب ...

علينا، ونحن نستعرض النهايات، أن نزرع الأمل الإيجابي لا الأمل الكاذب؛ فجميع النهايات تقود إلى بدايات جديدة لا إلى الكارثة أو الهاوية. صحيح أنه توجد نهايات وأنه لكل تاريخ نهاية لكن "التاريخ" لا نهاية له .

قد تبدو النهاية انزلاقاً نحو المجهول، لكنها أيضا بداية جديدة.. النهايات ليست سوى بدايات لدورة تاريخية جديدة، والحياة بأكملها وبكل مجالاتها ما هي إلا دورات (الدورات التاريخية، والدورات السياسية، والدورات الاجتماعية، والدورات الاقتصادية...)، وكل دورة تمر بأربع

مراحل: الانتعاش والذروة والركود والكساد؛ فالكساد ليس نهاية بل بداية انتعاش جديد.

في الختام نرجع لنجمع ما تناثر على طول صفحات هذا الكتاب من قواعد للمواجهة ومبادئ لإدارة التحول في زمن هذا الانفجار العظيم وعصر هذه النهايات الكبرى:

1. إننا نقف عند حافة نهاية دورة تاريخية وبداية دورة تاريخية جديدة، ويجب أن نُدْرِك بسرعة وبعمق ما معنى أن العالم يتحول نحو موجة جديدة، وأن نفهم مُحرّكات هذا التغيير، والقواعد الجديدة لِلَّعِب، واللاعبين الجدد، والأدوار الجديدة.

2. يجب أن ندرك أن "النهايات" ما هو إلا الفصل الأول من قصة البدايات الجديدة، لكنه الفصل الأساس، فعلى قدر فهمنا له نفهم بقية الفصول وننخرط فيها بإرادة الفاعل المتحدي لا التابع المسحوب، ونُطَوّر القدرة على رصد العلامات الضعيفة الدالة على موجات المستقبل والانتباه لمخاطر وفرص كانت من قبل متوارية عن الأنظار.

3. في فترات الانفجارات العظيمة وعصور النهايات تشتم للأسف رائحة واحدة فقط هي رائحة الموت بأشكاله المختلفة التي تملأ الأماكن كلها.. نعم للأسف.. فنحن نقضي وقتا أطول في التركيز على الموت لدرجة أننا لا ننتبه للحياة التي ستولد منه. ركّز على الموت بمقدار الحاجة

والضرورة إلى استخلاص دروس النهايات، لكن اجعل معظم تركيزك على الحياة التي ستولد منه .

4. استخلص دروس النهايات بسرعة وبعمق، واقتحم البدايات الجديدة باستشراف عقلاني ورؤية واضحة ومبادرات طموحة وواقعية وشجاعة.. إن واجب الوقت لحظة طوفان الانفجار العظيم هو بناء جسور البدايات فوق محيطات النهايات .

5. أصبحت اللعبة أكبر منا.. وعندما تكون اللعبة أكبر منك عليك أن تتفاعل مع "استحقاقات المرحلة" (وهي في أغلبها استحقاقات الرواد والمهيمنين) بمقدار الضرورة، وتنخرط في عملية إعداد وبناء على المدى البعيد، وتراهن مرحليا على ركوب الموجات والقفز إلى قطار الرواد وهو يمشي .

6. أصبح الغموض والعجز هما سمات المرحلة.. وعندما يكون الغموض والعجز هما سمات المرحلة تصبح حاجتنا الأولى الملحة هي القوة التحليلية والنقدية، واستشراف المستقبل والتنظير له، وصناعة الوعي وتحرير الإرادة .

7. الحذر من سلوك الانكماش والانعزال هروبا من المواجهة، أو التمسك بالماضي دون تمييز هروبا من الحاضر المُرعب، أو الدخول في ردود فعل متطرفة.. في مراحل الانتقال يبقى دائماً شيء من الماضي يتمسك به الجبناء والأغبياء، وكلما بلغت رحلة الإنسان غير الناضج مع

شيء نهايتها أحدث قطيعة معه وانتقل إلى ضده.. بعض خلاصات تجارب الحياة ليست سوى أنصاف دروس، ننتقل فيها من التمذهب لنصف الحكمة إلى التمذهب لنصفها الآخر المقابل لها، فنفوّت على أنفسنا فرصة درس مكتمل.

8. في فترات التحول الجذري، كالفترة التي نعيشها الآن، تنبع الأزمات من عدم نضج عوامل التحول، ويجب انتظار اكتمال نضج هذه العوامل (مثلا التكنولوجيات الجديدة وما يترتب عنها من منتجات ونماذج أعمال جديدة) للخروج من الأزمة. وفي انتظار ذلك علينا أن نتوقع الأسوأ ونستعد له، ونتربص بالفرص الكبيرة التي يحملها التحول معه.

9. عالم ما بعد الانفجار العظيم لن توجد فيه الكثير من الفرص للمنظمات التي لا تملك نافذة على المستوى الدولي.. ابحث عن فرص للتطور على المستوى العالمي فالفرص المحلية أفقها محدود، ونافس على المستوى العالمي فالمنافسة المحلية لا مستقبل لها، وواجه على المستوى العالمي فاللاعبون المحليون مجرد وكلاء.

10. التفكير في النهايات هو تفكير في كل القيم والمؤسسات المُتَحَوِّلة التي سيؤثر مستقبلها على مستقبلنا، وهو تفكير يستشرف مع كل نهاية بدايات جديدة ممكنة ومحتملة. لفظة "نهاية" تُحمل دائما على معنى "بداية جديدة". قم برصد النهايات وافهمها، واستشرف البدايات الممكنة والمحتملة الجديدة واستعد لها.



صدر للمؤلف



إضاءات التميز المؤسسي

الجزء الأول

الاستراتيجية



عدد الصفحات: 168 صفحة

الطبعة: الأولى 2015

ملخص الكتاب

عندما تغيب الاستراتيجية ينتكس العمل إلى حريق يومي يستنزف الجهود دون معنى، أو إلى نجاحات تكتيكية تعطي النشوة المخدرة لكن دون وجهة. إن العمل المرحلي الآني من غير عمل مستمر هادف مجرد نثار من الأعمال لا تجمع شتاته رؤية موحدة على المدى البعيد.

إن الاستراتيجية مهمة ومصيرية. مهمة من حيث أنها تخرجنا من عزلتنا وتدفعنا نحو الغير لمواجهته والدخول في تنافس معه، ومن حيث أنها تحررنا من ضغط الضرورة أو الاستعجال أو التجريب. ومصيرية من حيث أنها تساعدنا على إدارة المخاطر واستغلال الفرص، كما تعلمنا الضبط والانضباط، وحس المسؤولية، وتحفز جهود فرق العمل وتوحدها حول رؤية واضحة للمستقبل.

لكن علينا أن نعترف بأن الاستراتيجية هي على درجة كبيرة من التعقيد، وتفترض الكثير من الذكاء والشجاعة، وهذا ما دفعنا إلى تعميق الاشتغال على هذا الموضوع بحثا وترجمة وتأليفا وتدريبا واستشارة. وهذا الكتاب، الذي جمعنا فيه إضاءاتنا في موضوع الاستراتيجية، هو امتداد لمساهماتنا السابقة في هذا المجال.

إضاءات التميز المؤسسي

الجزء الثاني

القيادة



عدد الصفحات: 106 صفحة

الطبعة: الأولى 2016

ملخص الكتاب

ثلاث أزمات تفسر إخفاقات الماضي، وتعمق جراحات الحاضر، وتحاصر آمال المستقبل: أزمة القيادة، وأزمة الاستراتيجية، وأزمة التنظيم. ثلاث أزمات تعاني منها الإدارات العامة والشركات الخاصة والجمعيات والمنظمات عندنا ولا تزال.

والأزمة الأولى أعوص من الثانية والثالثة؛ فلنا من ترهل القيادات وضعف أدائها ما يكفي لتأليف موسوعة في العود الأبدي لتجارب الفشل. لكن لدينا أيضا من نماذج القيادة الناجحة والفعالة ما يدعو للفخر والاعتزاز، ويوفر نماذج حية للدراسة والتحليل.

كانت أزمة الاستراتيجية هي الدافع الأساس لي في ما ترجمت من أدوات ومنهجيات في التشخيص والتخطيط والإدارة الاستراتيجية، وفي ما كتبت من مقالات في موضوع الاستراتيجية خلال السنوات الماضية. وعندما نشرت كتابي "فقه الاستراتيجية" قمت بتوضيح الكثير من المفاهيم، وضبط الكثير من المبادئ، وبناء الكثير من النماذج. تحدثت عن التفكير الاستراتيجي، والفعل الاستراتيجي، والحقل الاستراتيجي، والذكاء الاستراتيجي... وحاولت جهد الإمكان أن أساهم في بناء مفاهيم ومبادئ وأدوات فقه الاستراتيجية بما يساعد كل من يهمه الأمر للخروج من أزمة الرؤية وغموض المشروع.

بعد "فقه الاستراتيجية" أنتقل الآن للكتابة عن القيادة.. عن "فقه القيادة". وأسأل الله عز وجل أن يبارك في الوقت والعمر للكتابة مستقبلا عن "فقه التنظيم".

إضاءات التميز المؤسسي

الجزء الثالث

التنظيم



عدد الصفحات: 223 صفحة

الطبعة: الأولى 2016

ملخص الكتاب

يبدو موضوع "التنظيم" للباحثين والممارسين، على خلاف مواضيع الاستراتيجية والقيادة والأداء، موضوعا مألوفا وملموسا ويسهل تدبيره. فأغلبنا له تجاربه التنظيمية الشخصية في إدارة حكومية أو شركة خاصة أو جمعية خيرية أو منظمة غير حكومية.. ومن السهل تصور مجموعة من الأفراد حول طاولة واحدة يجتهدون في تشكيل وهندسة بنية تنظيمية «فعالة». هذا الإحساس بالبداهة والسهولة في التعاطي مع موضوع التنظيم يُوَلّد لدى كل واحد منا الاعتقاد بأنه "خبير تنظيم" بالفطرة. والنتيجة المترتبة عن هذه الغيبوبة التنظيمية السعيدة وهذه الصناعة التنظيمية التقليدية بنيات تنظيمية وثقافات تنظيمية تفتقد إلى الفعالية والكفاءة وتشكل أحد أهم مصادر الهدر وعدم الفعالية في أداء منظماتنا.

للمساهمة في الخروج من هذا الواقع يأتي هذا العمل «إضاءات التنظيم» النابع من تحقيق وتدقيق علمي لمفاهيم ومبادئ وممارسات وأدوات هندسة التنظيم، ومن خبرة عملية في المجال.

إن النموذج العلمي الذي نقدمه في هذا الكتاب هو نموذج مصمم بشكل دقيق وفعال، ويشكل وسيلة عملية للفهم العميق لواقع المنظمة والفعل المؤثر فيها. ويتأسس هذا النموذج على مقاربة التنظيم من خلال أربعة أبعاد هي: الفاعلية التنظيمية، وضبط البنية التنظيمية، وانسجام التنظيم مع محيطه الخارجي، وحركية تطور التنظيم.

وانطلاقا من هذه الأبعاد الأربعة وضعنا نموذجنا الرباعي لأبعاد التنظيم:

- البعد الأول: الفاعلية التنظيمية.
- البعد الثاني: بنية التنظيم.
- البعد الثالث: محيط التنظيم.
- البعد الرابع: حركية التنظيم.

إن التنظيمات، كمُحَوِّلات الطاقة، نوعان رئيسيان: رافعات للطاقات البشرية أو خافضات لها، ولنا أن نختار بين الاحترافية في تصميم التنظيم وإدارته للرفع من الأداء أو التجريب الذي يقود إلى ضعف الأداء.

إضاءات التميز المؤسسي

الجزء الرابع

الأداء



عدد الصفحات: 159 صفحة

الطبعة: الأولى 2016

ملخص الكتاب

النموذج الرباعي للتميز المؤسسي" هو مشروع علمي، موضوعه "التميز المؤسسي"، ومنهجه "البحث التدخلي"، وهدفه اكتشاف مبادئ وأبعاد ودعامات وأدوات وممارسات التميز المؤسسي.

ينطلق هذا المشروع العلمي من خصوصيات وحاجات منظماتنا العربية ومن التجارب والنماذج العالمية، ورسالته هي خدمة أداء منظماتنا العربية بكل أنواعها من إدارات حكومية وشركات خاصة وجمعيات خيرية ومنظمات غير حكومية. أما دوافعه فمتعددة:

- أولا لأن إخفاقات الماضي، وجراحات الحاضر، وآمال المستقبل مرتبطة بتقديرنا بأربع أزمات هي أزمة القيادة، وأزمة الاستراتيجية، وأزمة التنظيم، وأزمة الأداء. وبالتالي فإن عوامل التمكين والتميز المؤسسي هي أربعة: الاستراتيجية والقيادة والتنظيم والأداء.

- ثانيا لأن الأداء العالي والمنتظم يحتاج إلى قيادة حازمة واستراتيجية شاملة وتنظيم عقلاني. لكن "سفراء النوايا الحسنة" الذين يجسدون بالنموذج الحي واقعنا لا يملكون سوى قيادات طيبة، وعموميات راقية، وتنظيمات عاطفية. ولا يحققون بمشاعرهم الصادقة الجياشة سوى نتائج عادية في أحسن الحالات.

- ثالثا لأن المشاعر الصادقة الجياشة لا تنقصنا، ولكن ينقصنا الحزم في القيادة، والشمولية في التخطيط، والعقلانية في التنظيم، والتميز في الأداء.

ويتكون هذا المشروع العلمي من أربعة أبعاد:

- **القيادة**
- **الاستراتيجية**
- **التنظيم**
- **الأداء**

قدمنا في الأجزاء الثلاثة السابقة من هذه السلسلة إضاءات القيادة والاستراتيجية والتنظيم، ونقدم في هذا الجزء الرابع إضاءات الأداء.

إن "النموذج الرباعي للتميز المؤسسي" هو مشروع بحثي تخصصي أصيل، يقوم على قاعدة منهجية وعلمية صلبة ودقيقة، وتجربة وخبرة عملية واسعة ومتنوعة، ويسعى إلى دعم جهود التطوير المؤسسي وتسليحها بسند علمي وعملي مُحَرَّر على شروط أدق المعايير العلمية وأفضل النماذج العملية العالمية.

فقه الاستراتيجية

الجزء الأول

المفاهيم والمبادئ



عدد الصفحات: 124 صفحة

الطبعة: الأولى 2013 - الثانية 2014

ملخص الكتاب

إن الاستراتيجية قضية مهمة بل مصيرية. مهمة من حيث أنها تخرجنا من ذواتنا وتدفعنا نحو الغير لمواجهته والدخول في تنافس معه؛ ومن حيث أنها تحررنا من ضغط الضرورة أو الاستعجال أو التجريب. ومصيرية من حيث أنها تساعدنا على إدارة المخاطر واستغلال الفرص كما تعلمنا الضبط والانضباط وحس المسؤولية؛ ومن حيث أنها تحفز جهود فرق العمل وتوحدها حول رؤية واضحة للمستقبل.

ومن ثم ينبغي لكل من يريد أن يؤدي رسالته بفعالية وكفاءة، وأن يرتقي بأدائه نحو التميز، وأن يساهم عمليا في صناعة التاريخ، أفرادا ومؤسسات، ينبغي له أن يفكر بطريقة استراتيجية وأن يقود بطريقة استراتيجية، لكن ما الاستراتيجية؟

هذا الكتاب يقدم إجابة عن هذا السؤال من خلال استعراض مفاهيم ومبادئ ونماذج فقه الاستراتيجية.

على مستوى الجهاز المفاهيمي لفقه الاستراتيجية كانت فقرات هذا الكتاب فرصة لضبط دلالات عشرات المفاهيم وعلى رأسها مفهوم الاستراتيجية نفسه.

وعلى مستوى المبادئ استعرضنا أيضا عشرات المبادئ المؤسسة للتفكير والفعل الاستراتيجيين.

وأخيرا على مستوى النماذج اعتمدنا أربعة نماذج تأسيسية شكلت مجتمعة نسقا كاملا ومتكاملا لبناء الفهم وتوجيه الإرادة. وهذه النماذج هي:

- أولا **نسق الاستراتيجية** ويتكون من التنظيم والمشروع والمنهج والتقنية والظرفية.
- ثانيا **آلية الفعل الاستراتيجي** المكونة من الوسائل والغايات والمنهج الذي يربط بينهما.
- ثالثا **الحقل الاستراتيجي** بأركانه الثلاثة: الإطار المكاني والزماني للفعل، وحدود الحقل وقواعد المواجهة، والغير.
- رابعا **الذكاء الاستراتيجي** بأركانه الخمسة: الاستشراف والتفكير النسقي والرؤية المستقبلية والشراكة والقدرة على تحفيز العاملين.

المستويات
7
في القراءة



عدد الصفحات: 147 صفحة
الطبعة: الأولى 2015 - الثانية 2017

ملخص الكتاب

ما معنى "تعلم القراءة"؟

إن تعلم القراءة معناه أولاً أن تجد متعة في القراءة؛ تلك المتعة التي لم تبدأ في حياتنا بالمفردات والمعاني والقواعد وتحليل الخطاب والنقد، وإنما بدأت لحسن حظنا بأغاني الطفولة وحكاياتها.

وتعلم القراءة معناه ثانياً أن تجيد اختيار نوعية الكتب التي تقرأها؛ فليس المهم عدد الكتب التي تقرأها، وليس من الذكاء أن تقرأ أنوار كتب المنبع على ضوء شروحات كتب المصب؛ لأن كتاباً واحداً من المنبع يُغني عن ألف كتاب من المصب، وأن تتحرر من الرعب الذي تسببه كتب المنبع لدى المتمسكين بقراءة كتب المصب، وأن تتوب من ذنب كتب المستنقعات التي تسرق من عمرك.

وتعلم القراءة معناه ثالثاً أن تتقن استخدام المنهجيات الملائمة للفهم الواضح والدقيق. فالقراءة كالتفكير، بل هي التفكير عينه، تلك المعاناة الفكرية التي تقودنا إلى النهاية السعيدة: الوضوح والدقة والبساطة.

وتعلم القراءة معناه أيضاً أن تملك القدرة على القراءة السريعة؛ أي على قراءة وفهم كتاب من مائة صفحة في ساعة واحدة، لكن مع الصبر على قراءة وإعادة قراءة ومقارنة وتمييز وتصنيف وتحليل وتأمل فقرة من مائة حرف في ساعات متعددة وأيام.

وتعلم القراءة هو كذلك أن تملك مهارة القفز بين الخطابات، والنقد الفعال والعملي لها.

وأخيرا تعلم القراءة هو التلقي من مستويات منطقية متعددة.

إن القصة التي يسردها هذا الكتاب هي قصة رحلة ممتعة وطويلة وشاقة؛ قصة وجود خارطة طريق لأنواع ومستويات القراءة. وهذه القصة لا تتحدث عن القراءة فقط، وإنما عن علاقتنا بها أولا. وإذا ما اقتنعت بأن علاقتك بالقراءة تحتاج إلى إعادة نظر فأهلا بك في رحلة المستويات السبعة للقراءة.

الذكاء المالي وصناعة الثروة

رؤية اجتماعية



عدد الصفحات: 121 صفحة

الطبعة: الأولى 2017

ملخص الكتاب

هذا الكتاب هو الجزء الأول من مشروع رؤية جديدة متكاملة للذكاء المالي تنطلق من دراسة تحليلية نقدية لكتابات الرواد الأمريكيين أمثال نبليون هيل وروبرت كيوزاكي الذين يختزلون الذكاء المالي في قوانينه النفسية، وتستهدف نمذجة الذكاء المالي من منظور متكامل: نفسي واقتصادي واجتماعي، مع التركيز على المقاربة الاجتماعية باعتبار أن تسعة أعشار قوانين اشتغال المال واللعبة المالية هي قوانين اجتماعية.

الجزء الأول يستعرض في ثلاثة فصول المقاربات الثلاث للذكاء المالي: المقاربة النفسية، والمقاربة الاقتصادية، والمقاربة الاجتماعية.

أما الأجزاء الثلاثة القادمة فسيتم تخصيصها للقوى الاجتماعية الثلاث التي تتحكم في صناعة الثروة:

- **الجزء الثاني: الاستعدادات.**

سيستعرض قوة الاستعدادات الذاتية التي ندخل بها اللعبة المالية.

- **الجزء الثالث: الرساميل.**

سيستعرض قوة الرساميل المتعددة والمختلفة التي يستخدمها اللاعبون.

- **الجزء الرابع: اللعبة المالية.**

سيستعرض قوة اللعبة المالية وقواعدها التي يتصارع اللاعبون على وضعها من خلال مشاريعهم واستراتيجياتهم.

رحلة إلى عالم الجودة الشاملة

المفاهيم والمبادئ



عدد الصفحات: 96 صفحة

الطبعة: الأولى 2017

ملخص الكتاب

ينطلق هذا الكتاب من هاجس البحث عن إجابة واضحة ودقيقة وعملية لإشكال مهم وحيوي يرتبط به مصير مجتمعاتنا في عصر التحولات الكبرى والتغيرات السريعة والمنافسة القوية وهو: كيف يمكن كسب رهان جودة منظماتنا؟

يتعلق الأمر بسؤال الكيف؛ أي بسؤال عملي همه البحث عن الكيفية العملية التي من شأن تبنيها واعتمادها أن يتيح لمنظماتنا فرصة لكسب رهان الجودة.

ويتضمن جواب سؤال: كيف، شقين:

- الشق الأول متعلق بضبط المفاهيم والمبادئ.

- الشق الثاني متعلق بالطرق والأدوات.

في هذا الجزء الأول من رحلتنا إلى عالم الجودة الشاملة قمنا بضبط المفاهيم والمبادئ الأساسية للجودة.

وقد اخترنا، عن قصد، لهذه الرحلة أسلوب التركيز والاختصار الذي يجعل الرحلة سهلة وممتعة، دون أن يفقدها مطالب الدقة والوضوح والعمق.

وقد سلكنا في رحلتنا مع المفاهيم والمبادئ الأساسية للجودة المحطات التالية:

- المحطة الأولى لمعرفة الحاجة إلى الجودة.

- المحطة الثانية لتعريف الجودة وضبط مختلف دلالات المفهوم.

- المحطة الثالثة لاستعراض موجز تاريخ الجودة.

- المحطة الرابعة للوقوف على مبادئ الجودة ومعارفها العميقة.

- المحطة الخامسة لمعرفة المقاربات المختلفة لإدارة الجودة.

- المحطة السادسة لمعرفة أبعاد الجودة واختلاف مقارباتها.

- المحطة السابعة والأخيرة لمعرفة شروط الجودة.

لماذا تفشل المنظمات في تطبيق الجودة؟

الشروط التربوية والثقافية والتنظيمية لنجاح إدارة الجودة



عدد الصفحات: 58 صفحة

الطبعة: الأولى 2018

ملخص الكتاب

ينطلق هذا الكتاب من التساؤل عن السبب الذي يجعل الكثير من جهود المنظمات في بناء أنظمة الجودة تفشل، ويحاول الإجابة عن هذا التساؤل من خلال نموذج ثلاثي يركز على تربية الجودة وثقافتها وتنظيمها.

إن عوامل فشل أنظمة الجودة كثيرة، والمقاربة الإدارية التقنية للجودة التي تنشغل بالمتطلبات القيادية والإدارية والعمليات والإجراءات والمعايير والطرق والأدوات غير كافية، وتحتاج المنظمات إلى مقاربة تربوية ثقافية تنظيمية تعطي الأولوية لتربية الجودة وثقافتها وتنظيمها.

إن نظام الجودة يحتاج إلى فاعل هو إنسان الجودة، وإلى بيئة داعمة هي ثقافة الجودة، وإلى أدوات تنظيمية تمنح الفعالية والكفاءة في الفعل هي تنظيم الجودة. وهكذا تنجح خطط الجودة عندما تجتمع هذه الشروط التأسيسية الثلاثة:

- **شرط في مواصفات الفاعل: إنسان الجودة.**
- **شرط في البيئة الثقافية: ثقافة الجودة.**
- **شرط في الوسيلة التنظيمية: تنظيم الجودة.**

إنه لا جودة بدون إنسان الجودة، ولا يمكن بناء إنسان الجودة بدون ثقافة الجودة وتنظيمها.

مدارس الفكر الاستراتيجي

العميان العشرة والفيل



عدد الصفحات: 131صفحة

الطبعة: الأولى 2018

ملخص الكتاب

كل مدارس الفكر الاستراتيجي عميان أمام هذا الفيل المسمى "الاستراتيجية"، عميان لأن كل مدرسة تدرك جانباً منه فقط، وتجهل جوانبه الأخرى.

تستمد هذه المدارس مرجعياتها من مصدرين: خبرة المستشارين وعلم الجامعيين. يميل المستشارون إلى رسم لوحات ثلاثية الأبعاد لكن لحيوان جامد، ويعشق الجامعيون رسم نفس الحيوان الجامد لكن في لوحات ثنائية الأبعاد.

ورغم هذا التحنيط الذي طال الحيوان من طرف المستشارين والجامعيين، انتشرت الاستراتيجيات ولقيت إقبالاً كبيراً. لكن رغم هذا الإقبال لم تنجح الاستراتيجيات في الغالب الأعم (بعض الدراسات تقول أن كل تسع خطط من أصل عشرة تفشل)، لأن قادة المنظمات ومديريها حُشِروا في منظورات ضيقة مع عجائب التخطيط الاستراتيجي وغرائب معاييره، وما كان لها إلا أن تفشل لأن الفيل جُزّئ تجزيئاً وتَحَوَّل إلى جسد بدون روح.

إن الاستراتيجية لا يمكن لها أن تنجح بالتخطيط الاستراتيجي وحده، أو بحدس القيادة وحده، أو بتعلم المنظمة وحده، أو بأي جزء آخر من أجزاء الاستراتيجية. إن حاجة قادة المنظمات ومديروها إلى معرفة أفضل الممارسات العالمية في مجال الاستراتيجية والاستفادة منها مهمة، من أجل المضي قدما نحو مدرسة شمولية ومتوازنة في الفكر الاستراتيجي، لكن كيف يمكن جمع شتات علم وفن الاستراتيجية من خلال نظرة نسقية تستفيد من منظورات العميان العشرة، وتتجاوزها إلى نظرة شمولية ومتكاملة ومتوازنة وفعالة؟ هذا هو السؤال.

قواعد الحزم

دليلك إلى القيادة الحازمة



عدد الصفحات: 330 صفحة

الطبعة: الأولى 2019

ملخص الكتاب

هذا كتاب في قواعد الحزم، بعيداً عن الطيبة وبعيداً عن المكر، يحاول أن يسد نقصاً واضحا في المكتبة العربية في مجال السلوك الحازم والقيادة الحازمة، ويسعى إلى المساهمة في رفع فن القيادة الحازمة إلى مستوى العلم الذي تحكمه قواعد واضحة.

فكرة هذا الكتاب نابعة من الحاجة إلى التنظير والتخطيط للقيادة الحازمة بعيدا عن النموذجين السائدين: القيادة الطيبة والقيادة الماكرة. وهو يتأسس على فرضية أن أزمتنا في القيادة هي غياب نموذج القيادة الحازمة.

وقد قمنا بنمذجة صفة الحزم في القيادة من خلال خمسة أسئلة، تغطي الأبعاد الخمسة لشخصية القائد، وهي: الإرادة والمعرفة والقدرة والقيم والفعل. إن مطلب الحزم يتحقق بالتوازن بين متطلبات هذه الأبعاد الخمسة.

وقد عجّل بإخراج هذا الكتاب مقال تهنئة بمناسبة سنة جديدة؛ اعتاد الناس أن يُقال لهم على رأس كل سنة: "كل سنة وأنتم طيّبون"، لكن المقال جاء يحمل تهنئة غير عادية: "كل سنة وأنتم حازمون". ومباشرة بعد نشر المقال جاءتني رسائل واتصالات تسأل: كيف أكون حازماً؟

لكل هؤلاء الذين سألوا، ولكل الذين هرموا في فهم وحفظ نفس تجارب المكر لسكان الأجمة، ونفس تجارب الطيبة لسكان المدينة الفاضلة، ولكل الذين يبحثون عن طريق نحو الحزم في زمن ضاع فيه كل شيء بين سذاجة الطيبين ومكر الماكرين، هذه هي قواعد الحزم.

للتواصل مع المؤلف



00212661167312


drissohlale@gmail.com


facebook.com/driss.ohlale


twitter.com/driss_ohlale



youtube.com/drissohlale


Driss Ohlale

الفهرس

مقدمة 7
الفصل الأول: فقه النهايات 10
- الانفجار العظيم 11
- عصر النهايات الكبرى 15
- نهاية دورة تاريخية 17
- هل هي مؤامرة عالمية؟ 19
- هل هي نهاية الرأسمالية العالمية؟ 21
- هل نسير إلى الهاوية؟ 22
- المنزعجون من النهايات 26
- في فضائل الأزمات 29
- الضوابط المنهجية لخطاب النهايات 32

الفصل الثاني: نهايات في المجال التعليمي 39
- نهاية المدرسة 40
- نهاية البيداغوجيا 45
- نهاية الجامعة 50
- نهاية التخصص 56
- نهاية الشهادة 59

الفصل الثالث: نهايات في المجال الثقافي والإعلامي 63
- نهاية الوسائل التقليدية لنقل المحتوى 64
- نهاية الإعلام التقليدي 68
- نهاية المثقف 72
- نهاية التفكير 78

الفصل الرابع: نهايات في المجال الاجتماعي 82
- نهاية المجتمع 83
- نهاية الطبقة المتوسطة 87
- نهاية الصراع الطبقي 92
- نهاية الأسرة 94
- نهاية الخصوصية 97

- نهاية السعادة 103

الفصل الخامس: نهايات في المجال الاقتصادي 108

- نهاية السوق 109
- نهاية النقود 113
- نهاية الوظيفة العمومية 115
- نهاية أنظمة التقاعد 119
- نهاية الطاقة الأحفورية 125
- نهاية الاستهلاك المسؤول 129

الفصل السادس: نهايات في المجال السياسي 132

- نهاية السياسة 133
- نهاية القيادة 138
- نهاية الديمقراطية 144
- نهاية الحريات الفردية 149
- نهاية الدولة الاجتماعية 153
- نهاية المصلحة العامة 156
- نهاية الجنسية 159
- نهاية الغرب 162

خاتمة: بداية دورة تاريخية جديدة 166

صدر للمؤلف 171

للتواصل مع المؤلف 183

هذا الكتاب

هذا كتاب في استشراف المستقبل وقراءة آفاقه المحتملة، إذ لم يعد بالإمكان التخطيط للمستقبل بدون استشرافه، في ظل حاضر مضطرب وعنيف ومستقبل غامض ومُرعب.

يستمد هذا الكتاب ضرورته من الأزمة العالمية الحالية والحاجة إلى فهم ما يجري من تحولات وتغييرات، ويستمد مشروعيته العلمية والفكرية والمنهجية من مرجعيات ومقاربات متعددة ومتكاملة، ومن تحليل الواقع الراهن بمختلف أبعاده للكشف عن حركيته وتحولاته، ومن فكر نسقي مُركّب عابر للتخصصات نُؤمن أنه وحده يستطيع أن يرى الواقع المُركّب على حقيقته ويفهم الأزمات المُركّبة في شموليتها وتعدد أبعادها.

في هذا الكتاب سنقوم بتجميع شتات قصة نهايات متعددة ومتنوعة (والنهايات الواردة فيه هي للتمثيل وليست للحصر)، وتجميع شتات قصة بدايات جديدة أيضاً.. تجميع القِطَع ضروري لتكتمل عندنا الصورة الكلية للنهاية والبداية، ونُدرك التغييرات والتحولات الجارية في الحاضر والقادمة في المستقبل. من يفهم "الموت" و "الحياة" وينجح في رصد "دواب الأرض" الدالة عليهما يُجَنِّب نفسه البقاء في العذاب المهين.

في هذا الكتاب وقفة بل وقفات مع ظهور وتمدد قيم ومؤسسات جديدة وثورية تعلن عن نهاية القيم والمؤسسات التقليدية التي فتحنا أعيننا عليها وألفناها لحد الاعتقاد بأنها قيم ومؤسسات طبيعية وأبدية.

يبحث هذا الكتاب في خطاب النهايات لفهم وتفسير علاقة الجديد بالقديم، وطوفان التحولات التي يعيشها العالم، وما تتطلبه البدايات الجديدة من فهم للحياة باعتبارها ظاهرة مُتجدّدة، وللصراع باعتباره قانونا اجتماعيا كونيا.

ويجب ألا يفهم من نقد المؤسسات والقيم التقليدية أو الحديث عن نهايتها أنه دعوة للتخلي عنها، فنقد المدرسة مثلا والحديث عن نهايتها يجب ألا يفهم منه أن المطلوب من الأسر هو أن تنهض بمسؤولية تعليم أبنائها، فهذا من سابع المستحيلات في ظل الثورة العلمية والانفجار المعرفي وظروف عمل الوالدين. ومحدودية نتائج تجارب "التعليم المنزلي" دليل على خطورة المغامرة بمستقبل الأبناء بركوب خيارات غير مدروسة وغير مجربة وغير واقعية.

إن هدفنا من إطالة الوقوف عند النهايات (نهاية المدرسة، ونهاية الأسرة، ونهاية الشهادة، ونهاية السوق...) وتحليلها بعمق هو تعزيز الوعي بطبيعة التحولات الكبرى التي تعرفها اللحظة التاريخية التي نمر بها، مع الوعي أيضا بالبدايات والفرص التي تولد منها، لأن كل نهاية هي بداية جديدة. ومع هذا الوعي المزدوج يفترض أن تتضح الرؤية والمسؤوليات والأدوار الجديدة.